رواية

كُنَّا هنا معًا

محمد ثابت توفيق

obeikandl.com

obeikandl.com

اسم الكتاب: كنا هنا معًا
التأليف: محمد ثابت توفيق
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 104
عدد الملازم: 6.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 20 x 14
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2016/16408
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 561-2

التوزيع والنشر

darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

١٤٣٨هـ
٢٠١٧م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

دم الشهيد له رائحة المسك!

ثارت هذه الجملة غفلة في دمي، لما رأيتُهم يتحركون نحوي..

خلقني الله تعالى هكذا، لي خط تفكير مواز قد لا يخطر على بال أحد من البشر، يثور غفلة في ذهني، بل أراه شريطًا يتحرك داخل عقلي، كأنما تمت زراعة شاشة، بل ثمة بناء عقلي داخل تلافيف الحياة، عبارة عن صور متراصة، تتباعد وتتقارب على نحو غريب، تثور الصور كلما جاء أمر مجلجل في حياتي، وتمر بي دون وعي أو إدراك، أو انتظار لها، رأيتُ هذا الشريط كلما رأيتُ إنسانًا يظلم آخر، رصاصة تصيب سيدة أو فتاة بلا ذنب سوى إنها خرجتُ تعبر عن رأي، بل إن الدم ليفور، يعطر كلتا يدي، وأراه يصبغ مجال الإبصار لعينيَّ، موقف فيه صندوق انتخابات، أو حتى على أسوأ المواقف رأي؛ فمن أين تأتي الدماء إذًا؟

ـ أم إنني غير مدرك تمامًا لهول الموقف؟

ـ هالة، هل تسمعينني؟

أراها بكامل ألَقِها وبهائها في الثوب الأزرق الفضفاض تدور حولي في نفس اللحظة الملقاة فيها أمامي، هل تدورين وأنت في مكانك؟

أتذكر لحظات غارَ فيها الإحساس منّي مثل الآن، وعلى مدار حياتي، بداية من ضرب ناظر المدرسة الابتدائية لي بلا سبب، أو إطاحة عصا

الأستاذ ممدوح أبو النصر البالغ القصر.. لكنه مدير المدرسة الثانوية الوحيدة في بلدتي الساحلية، وكان رجلًا لا يشق له غبار، وتطير عصاته في الهواء إن لمح واحدًا من الصف في المدرسة خارج الإطار أو البرواز الذي يريده بالغ النظام، وكانت بي سمنة آنذاك تُعد مرضًا لا يقبله الكثيرون، ولا يحبه المدير الحازم، المحب للحق، البالغ الضبط للمدرسة، ولكن هذا لا يمنع شيئًا من الظلم في المدرسة التي تستظل بظله، وسارت فوضى بعد وفاته، ولم يكن أحدٌ يتخيل له موتًا، لكني لما طالت خلفيتي عصاه طار صوابي من فرط الألم، ومن كونه جاء منه هو..

بدأ شريط الصور ذات الأصوات يعلو في تلافيف عقلي، أصوات واضحة محددة لبيتين من الشعر العربي الرائق بل البالغ الأناقة، هكذا كنتُ.. وما زلتُ، في مواقف بالغة الخطورة تنهض معالم الوجدان بما لا يخطر على عقل أو بال.

ولكن ما للعشرات من الناس الآن يتتابعون حيث أقف؟ وما لبالغ الصخب يزداد في كل مكان؛ يزداد من حولي؟ بل ما بالي أميل على جبين هالة؛ لأمسح عنها التراب المعطر بالمسك؟

ـ هالة، ما بك؟!

هي على الأرض نائمة على ظهرها، وهي .. هي إلى جواري تقول لي:

ـ لا تراع إنني معك، أحيا، وسأظل كذلك.. ذلك ليس وعدي بل وعد عظيم من محبوبك الأعظم الأسمى في هذه الحياة.

ـ فقط، هالة، رجاء لا تغيبي عن ناظريّ.

ـ وهل غاب من الآلاف أحدٌ هنا، برغم شدة الحرارة والصيام، والمدرعات، والدبابات، والـ...

ـ لا.

ـ فكيف تغيب زوجة إيلاف؟!

أحسستُ بالنشوة تأخذ بتلافيف عقلي، فتهزه هزًّا بلا رحمة ولا هوادة، كنتُ أُمرّغ وجهي في حجابها، جبهتها الناصعة البياض، أرتاح حتى الثمالة إلى رائحة المسك الفواحة، إنني أمقتُ الأشياء المتعارف عليها بين البشر، ومشهد زجاجات المسك الصغيرة صار معهودًا بالنسبة لي أمام المساجد في مصر أو في الخليج حيث أمضينا بعض الوقت في العمل هناك، وكانت معي، كانت تحب تلك الزجاجات، وتشتري لي منها، لكن الآن جبهتها، حجابها السماوي لهما رونق آخر مختلف، لكن لماذا يريد صاحب تلك اليد القوية تنحيتي عن الرائحة المحببة، إبعادي عن هالة التي عشتُ واحدًا وثلاثين عامًا أفتقدها؟

انتشرت الرائحة الجميلة في العقل، ذهبت بلبي، أما بيتا الشعر؛ فكانا لعمرو بن ربيعة:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت صدورنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

لم تدمع عيناي حينما تذكرتُ هذين البيتين؛ لأنني كنتُ أعرف أني في يوم من الأيام سوف ألتقي هندًا، في صورة هالة، وإن تأخر الوقت بعض الشيء، وهكذا لما اجتمع شملنا، وكنتُ من قبلها لا أحب أن تكون لي

علاقة من أي نوع بفتاة، كنتُ أحس أن رحم الغيب ينسج لي امرأة من خامة خاصة تستحق الانتظار بعيدًا عن فوضى العلاقات، وانشغال البال بامرأة لن تكون قط لي.

منذ عرفتُ هالة ونحن- من بعد- معًا، فقط كانت ثمانية وأربعين يومًا منذ رأيتُها في بيت أخيها، ومنذ كانت في داري، إذ إننا قضينا أقل من شهر ونصف الشهر فقط مخطوبين، كنتُ أشعر أنها خُلقتْ لي وخُلقتُ لها؛ فما الداعي لأن نطيل في فترة الخَطبة؟

لكن لماذا أتذكر هذين البيتين الآن؟ وما ظلمتني هالة من قبل؟

ربما كانت لي (حبيبة) ليست من عالم البشر، وأحبها حبًّا جمًّا وتظلمني..

يقطعون عليّ فيض أفكاري إذ يحاولون انتزاعي بعيدًا عنها، بهدوء في البداية.. وصولًا إلى عنف شديد الآن:

ـ تعال من فضلك، لا وقت لدينا الآن، فقط دعنا نحاول التصرف؛ فالشهداء كثيرون. لماذا هم كثيرون؟ من ذا الذي يملك عقلًا وقلبًا أو مجرد وعي يقتل هؤلاء الذين تشرفنا بهم هنا؟

ـ لماذا تقولون ذلك؟ لا أحد في الكون يستطيع قتل أهل رابعة فيما هم خارجون من شهر صوم وعبادة!!

رآهم العالم كله على مدار ثلاثين ليلة.. وشاهد المنصة من قبيل شروق الشمس حتى قبيل الخامسة من اليوم التالي في وهدة، ثم تبدأ الفعاليات على مدار ١٢ ساعة يوميًّا كلها دعوة سلمية، من يستطيع أن يقتل هؤلاء؟

تداخلت الأصوات بقسوة وشدة من حولي فيما كنتُ راكعًا قريبًا من وجهها، من يستطيع أن يفصل بيني وبين زوجي:

ـ إنه فنان. من فضلكم دعوه لي.. هيا يا إيلاف من فضلك.. تجلَّد وقم.

إنه صوت رفيق الصبا، وصديق الشباب، زميل الأحلام وصنو الروح الدكتور صابر، الأستاذ الجامعي بإحدى الجامعات الغربية؛ جاء لإجازة صيفية فكاد يفقد زوجه:

ـ أهي بخير؟

كنتُ أقصد زوجته التي ضربها ضابط العمليات الخاصة بقنبلة غاز في كتفها حرقت خمارها، وأدمتها، قال بعد أن بلع ريقه بصعوبة، وحاول كبح جماح احْمرار وجهه:

ـ هي كذلك.

ثم نظر إلى الأرض طويلًا، تذكرتُه إذ كان يَدرس في دار العلوم، وأنام محبطًا في جامعتي بكفر الشيخ لما تأخَّرَت عليّ في الظهور هالة، بل وزعني مكتب التنسيق على كلية لا أريدها ولا أحبها، ولما أجبرني التنسيق الداخلي في الكلية على الالتحاق بشعبة لم أكن أريدها، بلا سند من منطق كان، وكاد قلبي يتعلق بقلب (منى) البالغة الاندماج البريء في الحياة، فيما مثلي أقصى اندماج له أن يقرأ روايات إحسان عبد القدوس في مكتبة الكلية، وأتعجب من كم انشغاله بالجسد، فيما يتحرك بداخلي شيء يأبى الانخراط مع الزميلات حتى في حوار بريء قبل أن يبدأ المحاضر الدرس، بل كم دعاني صديقي للتلطف الظاهري معهن، كنتُ أحس بأن

غياب هالة قد طال كثيرًا، وعقب المحاضرات كنتُ أقطع استاد الجامعة إلى حيث المطاعم المركزية شاكيًا غياب هالة للبحر، ولم يكن ثمة بحر في كفر الشيخ، وإنما كانت ثمة سحب تعلق وحنين لا يستطيع القلب التخلي عنهما، ويبدو أن الأيام تُضيع أكثر ما فينا جمالًا من أسف، وهل بعد أن وجدتُ هالة أفتقدها؟

إنه صديقي، إلى جواري، استطاع إكمال مسيرة التعليم العالي، فيما آثرت استكمال مسيرة التعبير، ذلك الذي كان يتخطى الحجب بمفرده، برغم ذقنه النابتة.. كي يَجيء إليّ، الوحيد الذي كان يجيء إلى مدينتي الجامعية في رمضان وغير رمضان، يدلف من الأبواب والحرس، يجدني نائمًا فلا يوقظني، وإنما يجلس في الطابق الأول من السرير المزروع في الحائط ذي الطابقين؛ ليقرأ في سعادة، ولما أقوم يعانقني، يهمس في أذني:

ـ وصلني خطابك، لا تترك عاطفتك الضارية النقية لـ (منى)، إنها تعاني من أزمة ضارية يا (ابني) أبوها طلق أمها، وأنت تحتاج لمن تُلملم شعث نفسك، لا لمن تلملها أنت، أعجبها حسنك، وسمرة بشرتها، قُلبتْ الآية فيك، لكنك لن تستكين أثق في هذا، «صابر» الوحيد الذي لا يكذبني، رفع رأسه.. بعد حين همس في أذني، كما همس حيال منى:

ـ ما عند الله أفضل يا إيلاف.

ـ هل ماتت؟

لم أكن أعرف هل زوجه أقصد أم زوجي؟

لكنني سرتُ معه منذ بدايات الطريق، أما زلنا في البدايات يا «صابر»؟!

هز رأسه في أسى شديد، ولكن «هالة» أشارت لي أن أعود من جديد، داورتُ صابر، حاول أن يعيدني، قلتُ له:

ـ أنت قلتَ فوق المنصة يوم الإعلان عن الانقلاب: إن مصر رأت أكثر من هذا وتخطته، ومن قبل الإسلام رأى ما هو أكثر وتخطاه.. أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ سأبقى هنا؛ كي لا تضيع مني.

قال وهو يبكي:

ـ كي لا يضيع منك ما تبقى منها.

obeikandl.com

-٢-

أعترف أني لم أكن من محبّي لا ميدان «رابعة العدوية»، ولا الملابسات الدافعة بفصيل من شعبي الذي أحبه من أقصى خلايا قلبي للصعود لسدة الحكم عقب ثورة ٢٥/ ١ إن كانت ثورة اكتملت:

ـ هل تشك في كونها كذلك؟

ـ لا يا «حبيبة». لكني أشك في كونها قد اكتملت من الأساس.. لقد بدأت ليس إلا يا هالة.

أحب شعب مصر، وأسميه في هفوات قلمي، وزلات لساني «شعبي»؛ لأنني أراه امتزج بتكويني، وذاب في أوردتي، ونطقت به مفاصل الجسد، واختلط بالدماء، كما لمّا عرفتُ ميدان «رابعة» على حقيقته ذاب بشرايبني، بل تم حقنه في أوردتي، لي أن أتذكر فترات ابتعادي عنه، وعدم رغبتي الذهاب إليه، لي أن أفكر فيم بعُدتُ، لكنني في رابعة وجدتُ شيئًا لم أره إلا فيها، بداية من بابها، لكن ذرة تراب لا فرد ولا طفل باق فيها، لقد كان التجمع هذا واحدًا من أحلام البشرية، بقاء عشرات الآلاف مع بعضهم بلا ضغينة أو مشاكسة أو ظلم لضعيف، هاهنا طيف ودٍّ تحار الألباب والأفهام فيه.

وإن كان جدي لأبي تركيًا تولى منصب عمدة في إحدى قرى «كفر الشيخ» البعيدة في العصر العثماني، وضاق أهل القرية به حتى قتلوه، فيما روت جدتي لأبي قبل وفاتها بسنوات، مضيفة لآخر الذين أعلمهم من جدودي جدينِ هما «عمر» «أغا»، فإن جدي لوالدة أبي- أحد أولياء الله-

أو هكذا ظن الناس به، وأقاموا له مقامًا، امتزج الأمران في قلب قلبي «الفتيّ» حتى ازدانت محبة مصر في تلافيف نخاعي الشوكي، وكنتُ في عملي الحكومي الأول بالتدريس أنتقل من تحت قدمي خوفو الهرم في نزلة السمان في التسعينيات من القرن الماضي، في ١٩٩٤م كان عليّ أن أركب أتوبيس ٩٢٤ من نزلة السمان حتى قريبًا من شارع القصر العيني؛ لأعمل بمدرسة «دولت فهمي»، التي هي في بابها الأمامي مسرح لمخرج، وفي بابها الخلفي مدرسة لأهالي قلعة الكبش، والمدبح، وشوارع السيدة زينب الداخلية حتى الفجالة شمالًا، والسيدة نفيسة وبعض شوارع حي الحسين من دروب أخرى، مدرسة للبنات في قلب معمعة مصر نظام مبارك، إذ تتألم، هناك كنتُ أدمن السير في الشوارع بعد تناول الجبنة المطبوخة مع السيدة المديرة «المنصورية» الفاضلة، لولا بعض حبها للمقالب.

حاولتُ جاهدًا تهذيب الأمر في نفس السيدة المديرة، وتم تغييره تمامًا بوجودها بعد سنوات طويلة في «رابعة» عجوزًا تبتسم في ثقة وتلوح لـ«هالة»، لكن من له طبع، كانت وحيدة حينها، وكنتُ قد عملتُ مع عدة مديرين ومديرات، هل تعني ما تزال لانشغال زوجها المحامي بما بعد أزمة منتصف العمر، والهرولة خلف بنات من يقاربن سن زوجته لكن من ربع قرن؟ وكانت لا تجد سببًا لتعود إلى البيت بعد العصر، لعلها تبقى «معتصمة» بالمدرسة طوال اليوم، ذابت «مشاكلنا الشخصية» مع مشكلات بلدنا هنا، أما يزال زوجها يدّعي أنه يأكل في المحكمة، فيما ابنها يأكل يوميًّا لدى خطيبته، والبنت في بيت زوجها، ومثلي بعد العمل لا سبيل لصعوده إلى قلعة الكبش للتدريس لفتيات أمهاتهن مُقعدات يرجون النجاح لبنات تجاوزن الحادية عشرة، ولا يحسن لا قراءة ولا فهمًا؛ لذلك

كنتُ أسيح في شوارع محيطة بالقصر العيني، المقاهي على الشارع الرئيسي، مع الناس البالغي البساطة في جوانب الحارات الصاعدة إلى المساجد والبعيدة عنها، قرب خطوات عربات «الكارو» وبعيدًا عن السيارات «المرسيدس»، والبقالات الضخمة، ومحلات الأدوات الطبية الخاصة بالمقعدين، ومدرسة الشيخ «علي يوسف» ومحبته لأميرة وتفضيلها له على أبيها وأمها بل كل منجزات أوائل القرن العشرين، وصورته بالحجم الطبيعي في المقدمة أمام باب المدرسة؛ حيث كنتُ أراقب، وأتخيل زمان الشيخ هل كان يقبل الغش في مدرسة باسمه؟ وإن كان عهده أقل قلقًا من هذا العهد، إلى جانب المدرسة المسجد، وأمامهما بائع العصير والأطعمة.. كم أفسدت بطني تلك المأكولات، وفي المقابل حارة ضيقة تؤدي إلى مستشفى أبي الريش والمترو، والكوبري العلوي لحواشي السيدة، تهتُ لسنوات في تلك الدروب، والشوارع القريبة والبعيدة منها، وأحببتُها، كما أحببتُ الطريق إلى التحرير منها، بل حتى العتبة، مرورًا بلاظوغلي بل العتبة.. وما زلنا نتمنى التغيير لكل هذا في ميدان التحرير كما في رابعة.

ولكني لم أحب «رابعة» في البداية.. أعترف.

قالت هالة:

ـ وهل الأماكن تُحب وتكره؟ واسمك «إيلاف» من الألفة والمحبة!!

وهل تُحب الأماكن وتكره لنفسها يا محب؟

ـ أتيت بخلاصة الكلام.. لا أحب الطرق المؤدية إلى رابعة.

رفعت حواجبها عجبًا، كما كان يحلو لها أن تفعل، لم تكن حبيبتي تجهر

بما يضايقني بأي حال من الأحوال، حتى وإن بدا الكلام أمام عينيها غير متناسق بعضه مع بعض، ضحكت بشدة فضحكت بل زادت:

ـ ننسى الموضوع إذًا أيا حبيب؟

ـ لا يا «ستي».

ـ نعم يا «سيدي»!

بل لماذا تغيب الليلة عني «هالة»، وقد صرنا أمام خط النهاية في رابعة:

ـ أين ذهبت حبيبتي؟

أعرف أنها خلف المنصة!

انفجر أقرب الأصدقاء بالدموع فيما لم أفهم، وانتحيت بحبيبتي جانبًا أتذكر «معها» وقائع هروبي من الذهاب إلى رابعة في البداية، وفرحي بزيارة مسجد «الرحمن الرحيم» قرب دار المدفعية في «صلاح سالم» بالعباسية.

ـ لم أكن أحب لأصحاب الأيادي المتوضئة الترشح للرئاسة في مصر من الأساس.

ـ ذلك لأنك لا تحب اسمهم المباشر.

ـ ماذا تفيد الأسماء في عالم ملئ بالكذب بل التدليس؟.

ـ حذار ليسوا كذلك.

ـ تمام يا أفندم.. كما أنك لستِ منهم.

obeikandl.com

ـ ولكني.. في قلبهم من صميم قلبي.

ـ ذلك لأنك ترينهم على الحق؟

ـ وأنت كيف تراهم؟

ـ الأقرب إليه.. ولكنهم بشر.

ـ اتفقنا، خالفتَهم الرأي في وجوب عدم ترشحهم، وأزعجتهم في غربتك ومنفاك الاختياري في آخر فترة منعك من عملك الإعلامي المميز، وكتبتَ أنه كان من الأفضل أن يدعموا مرشحك المنشق عنهم، وغضبوا منك ولم تشرح لهم وجهة نظرك كالعادة، بل صرت تكره مؤتمراتهم في سبيل ذلك، وكلما ذهبتَ غادرت المكان في خصام داخلي لقرارهم في أول أبريل من عام ٢٠١٢م، بل طربتَ للكاتب المفضل لديك لما قال لكأنها «كذبة أبريل»، ولكن الأمر صار واقعًا يا حبيبي، ولم يكن أحد ليحمل عبء مصر التي تحبها سواهم، بخاصة بعد تجريف (المخلوع)، وأنت لا تحب ذكر اسمه.

ـ وهل ترين مثله يستحق مجرد ذكر اسمه في حوار يخصني مع الحبيبة؟

جرَّف التربة المصرية كلها..

وأحال فرحها إلى غم شديد، وحتى بعد إبعاده عن السلطة غيّر مدخل ميدان رابعة الذي كم أحببتُه مع هالة، وذهبنا إليه في قيظ الصيف وقلب الصيام مرضاة لله تعالى، حرصًا على الإفطار في جنب الصالحين، والصلاة قريبًا من أردان الصالحين، أشاع الحزن في دروب وتلافيف

حواري مصر وشوارعها البارزة، كانت رابعة إشارة مرور في وجهة نظرهم، كانت قطعة من مطر السماء في عيني، أدخلها فتنمحي محن وفتن الحياة من عيني، وأترك هالة التي أحرص على ملازمتها لي بل التصاقي بها كلما مررنا بشارع من شوارع القاهرة بعد انتشار الطمع والجشع بل الجوع والسعار في دروبها، فور دلوفي من البوابة البسيطة المسماة تجاوزًا «أمنية» أترك هالة تدخل من باب السيدات وتلحق بي في حرارة الشمس المذيبة للباطل، من يملك أن يجيء مثل هؤلاء وهم يقدَّرون بالعشرات، إن لم يكن مئات الآلاف، إن لم يكن الملايين في ليال تعدت الأربعين، أين مناي «أرابعة»؟ البسطاء من العمال والفلاحين وأساتذة الجامعات، والأطباء والمحامين، بل الإعلاميين والعابرين للحياة بالصدق والنقاء.

ـ مرحب.. مرحب بالثوار، أهلًا.. أهلًا بالأحرار.

هكذا كانت تبكيني حرارة الاستقبال، والأيدي المتحسسة لظاهر الثياب من الخارج، للتفتيش، وهي تعتذر إليك بألق وجهها لدى بوابة «شارع النصر» أمام جهاز التنظيم والإدارة، كما تراجع ما لديكم من حقائب فإن وجد وجه الشاب المبتسم طعامًا معك قال في حبور:

ـ إذًا فأنا مدعو لتناول الإفطار اليوم معك؟

ـ أهلًا وسهلًا بك. بل تشرفني والله.

ـ يبقى شرف أني رأيتك اليوم واستقبلتُك.. لماذا التعب؟ الخير بقدومك اليوم كثير.

ثم مجموعة رؤية البطاقات الشخصية:

ـ حضرتك إعلامي؟!

شباب يرحب، ومرة ذهب شاب لرئيس المجموعة فيما تضررتُ ونظرتُ إلى هالة:

ـ أحيانًا أتضايق.

ـ شاب صغير يا «حبيب» والإعلام بصراحة قام بـ «الواجب».

ابتسمتُ؛ فكم الكذب الإعلامي لا حد له:

ـ أهلًا وسهلًا به.

مَنْ يقومون برش رذاذ المياه على الوجوه كلما خطوت، نساء مخصصات لحبيبتي، لحجابها الطويل، بل أطفال صغار يوزعون قطعًا متناهية الصغر من الثلج.

ـ ماذا نقمتم منهم؟ أين أنت يا «هالة»؟!

انداح المدى من أمامي عن ابتسامتها العذبة، كلماتها البسيطة المعبرة، حجابها المنسدل قالت:

ـ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ـ لم كنتَ تكره رابعة؟

ـ أنت دقيقة في دنيانا ومثلك قليل.

ـ في دنياكم؟

ـ ماذا تعنين؟

obeikandl.com

ـ لا أعني سوى أن تكمل.

كان صديقي العزيز الدكتور «صابر» يرفض الخروج بعد أن تم الفض وبقي عالقًا في البناية الكبيرة التي كان عليها إعلان لفيلم سينمائي لم يتعرض أحد له، ويزعمون أن الذين أحيوا شهر رمضان الكريم المبارك في عام انفلت من عمر الأزمان في رابعة وأرانا أجمل ما في الإنسان المصري؛ كانوا عنيفين، وقد كشفوا بقولهم عن أحقر ما في البعض، وتعتذر كلمة البعض عن بعضها»..»

ـ كنتُ أحبُّكِ أكثر هناك.. من باب النصر.. أو من الطيران، أو من وسط الخيام أو من الاتجاه الآخر خلف المسجد، كبرنا يا حبيبتي؛ فلم أعد أذكر التواريخ.. وأحيانًا المواعيد.

ـ كنتَ حبيبي تجبرني على «التزويغ» من الميدان.

ـ هل أنسى شابًّا قال لي: لا تتأخر علينا؟.

ـ لماذا؟

ـ لأنك كلما تأخرت زادت معدلات احتمال قتلي.

ـ تُرى.. أين هو الآن؟

ـ لعله في السماء.

لحظتها غابت عن المدى من حولي حبيبتي هالة.

كنتُ بالتحديد أكره نهج «الإخوان» الذي زج بهم من الدار إلى النار، من المعارضة الاحتجاجية، غير الخاضعة لأسس، وهل كان نظام مبارك ليسمح، ها أنا أتورط في ذكر اسمه، أين أنت يا هالة لتعيبي عليَّ هذا؟ وكنتِ دائمًا القريبة تعينينني على التفكير الجيد، ولما تولوا أمر مصر دون الخبرة الكافية، وهل من خبرة يسمح بها شخص حكم كره حتى أباه وأمه وطردهما من حياته طوال الوقت؟ بل تحلل منهما، بل من كل علاقة اجتماعية سوية لاتقوم إلا على المنفعة، أو ليس القائل لما اغتيل سابقه على نحو غير معروف دوره فيه حتى اليوم، أو ليس القائل لما خاف على نفسه، يوم تم قتل سابقه «السادات» على المنصة؟

ـ أنا موظف حكومة.

ولم يقل إنه مكلف بهدم الحكومة بل البلاد، حارب كل ما هو شريف، ونشر الفساد.

وما صارت الرئاسة لدى الإخوان استبشرتُ، وخرجتُ ضمن الفرحين إلى ميدان التحرير يومها، ومنذ الساعة الحادية عشرة، قبل إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية بساعات، فيما كانت الأنباء متضاربة، وقسم غير قليل يقول: إنه سيتم بالفعل إعلان «أحمد شفيق» رئيسًا لبلادنا؛ كي لا تخرج عن المنظومة الغارقة فيه منذ سنوات بعيدة.

ـ اسم شخص آخر لا تحبه ها أنت تذكره!

الصوت واللهجة والنبرة والبصمة ذات الرنة الساخرة العذبة غير المريرة لكن المُغرقة في المرارة، البصمة المميزة للنبرة للحبيبة لكنها ليست هنا.

ـ أين أنت أيا هالة؟

لم ترد علي، قال الناس لي في الطريق إنهم سرحوا الموظفين اليوم، وإن قتالًا محتملًا في ميدان التحرير، فقلت لـ «هالة» في الهاتف:

ـ كنتُ أتمنى أن أكون معك لكنك استأثرت بها لنفسك.. أعدك ألا أتأخر في المرات القادمة.

حبيبتي كانت تعرف أن التحدي بالغ، وأن هناك جولات كبرى قادمة.

obeikandl.com

-٣-

أيام نظام مبارك عانيتُ الأمرين، ورزقني الله تعالى بـ «هالة» في وسط بحر متلاطم الشطآن؛ تعويضًا عن طرف من قليل من قليل الألم الذي يلاقيه كثيرون ولاقيتُ بعضًا منه، لما تم طردي من عملي بسبب مقال في السيد الزعيم، أحيانًا، والقائد، أحيانًا أخرى، ومصر أحيانًا ثالثة، الذي لا يأكل إلا حبة بطاطس في شهر رمضان المبارك لأنه حريص على الشعور بالجوع مثل الشعب، ولا تعرف الكنافة بيته في الشهر المعظم إلا لما يأتيه ضيوف من «البلد» أي كفر مصيلحة، كذا زعم أحد كُتّابه الكبار، وكانت مصر تنتفض من مثل هذه الكلمات، ومن اغتيال إنسان لأنه صدَّق- في بورسعيد- أنه يمكنه توصيل رسالة بشكوى للسيد الرئيس، كما تُعلقُ اللافتات الكبرى في بداية شارع فيصل بالقاهرة، الرجل قُتِلَ ولم يجد أحدًا من أهله ليتسلم جثته، كذا كان النفاق مستشريًا في أركان دولة فاسدة آيلة للسقوط.

وطردتُ من العمل..

ويقول لك أحد الأصدقاء الحقوقيين كبار السن:

ـ (وماله) ياصديقي الناس تقتل وتعتقل بلا هوادة.. أو لستَ تريد المضي على طريق تحرر هذا البلد، لابد من أن تتحمل.

ـ ولكن المثقفين هم أجبن أهل الأرض.. وهؤلاء ما إن أذهب إلى

مكان عمل، وبالفعل أتعب في ترك مادة جيدة، حتى يشوا بي، بعض الزميلات في العمل، ممن لا أودُّ البوح بمستواهن، وبعض الزملاء ممن كانوا يمضون مثلي على الدرب.. الكل.

ـ لو أن الله تعالى شاء لخفف عنك كل ما تجد وتلاقي ووهبك الرزق بل الزوجة التي تخفف عنك.

ـ لما نفقد شيئًا غاليًا جدًّا في لحظة نتذكر صعوبة حصولنا عليه.

قال لي صديقي العزيز صابر في قلب ميدان رابعة.. تمامًا أمام المنصة يوم ١٤ من أغسطس ٢٠١٣م، وللتواريخ معي قصة شديدة الخصوصية، مع بداية عام ٢٠٠٠م تم طردي من عملي للمرة الأولى من حياتي فيما أقبل على العقد الرابع منها، وبعد أن ضللت لستة أعوام في متاهات التدريس، قررتُ الانقطاع التام عنه.

تلك مرارات حياتية حادة قادتني إلى هالة..

لكن لماذا يقول صديقي صابر إن الفقد الحقيقي فقْدُ مَن نحب ووجدناه بعد ظمأ وهجير في الحياة؟

ـ أنت تريدني أن أكون أكثر حرصًا على هالة.. ولكن من قال لك إني قد أفرط فيها؟

وجدتُ نفسي ووجدتها بعد متاهة ست سنوات في مهنة غير المهنة، وخمس سنوات في التيه في دول الخليج، وست سنوات مطرودًا من عملي،

وستة عشر عامًا أتعلم، وست سنوات صغيرًا، ماذا بقي من العمر إذًا؛ كي أختلف فيه مع هالة؟

علا الحياء وجه الصديق العزيز، وحاول النطق، ارتفع لسانه حتى سقف حلقه ثم صمت.

ـ لكن أين هالة؟!

لم أكن أحب ميدان رابعة بعقلي من الأساس.. وإن عشقته روحي!

ولا تهاون أصحاب الأيدي المتوضئة في حقوقهم، عرفت أن منهم من استهان بالأمر، ووجد في تقلدهم سدة الحكم منذ ٣٠ من يونيو ٢٠١٢م مكافأة على ما بذلوا من جهد طوال أكثر من ثمانين عامًا، وكان هناك من يقدر الأمر حق تقديره:

قال لي خالد الصديق المعلم الباقي من زمن التدريس:

ـ أصابعك ليست مثل بعضها.. فلا تتعب نفسك في التفكير في حال الناس. سيظل منهم وفيهم وعليهم ولهم ما دامت الشمس تشرق.

ـ ولكن كان لي تصور آخر عن الأمر لا يعرفه الكثيرون.

ـ ذلك لأنك كنتَ ملسوعًا منه.

متى جاء صديقُ صديقِ صابر؟، من أين انشقت الأرض عن الدكتور خيري، الرجل بالغ الحرصِ على النطق بالحق بشكل يبالغ في عدم احتواء الواقف أمامه في أحايين كثيرة.

كنتُ مضارًّا لطردي نحاني عنه نظام مبارك، ولم أكن أعرف كيف أنال بعض حقي في عهد الإخوان، لذا كانت ترهات التعامل باستخفاف في أمر كأمري تؤلمني، وكانوا قد تولوا حقيبة الوزارة التي أعمل بها، كان الأمر محيرًا، يخافون مِن فَغْر فم معاديهم بأمر إنصافي، وكان قد أقر به وزير وفدي في طلب تمت مداراته ككل ما يحدث في مصر على الدوام من مفارقات بالغة الندرة، يقف العقل أمامها بالغ التحير، وفي المنتصف كانت حالة الركون إلى كون الواقع بالغ المرارة واضحة، عجلة الإنتاج تمضي، لكن الأداء المطلوب لم يكن على ما يرام، قالوا: إن الواجب أن يتدخل الجيش، وقال قائل: إنه ممثل عاطفي، وكنتُ في المنتصف تائهًا لا أكاد أصدق ما أراه، أعلى قمة عملي يصدر تأشيرة بنيل نصف حقي، فيرفض الإداريون والموظفون في المبنى العريق العتيد التنفيذ، فيما الرجل يتهرب من اللقاء.

ـ من أنت؟ أأنت خالد؟!

أنت من حزب الكنبة.. بل السرير، فكيف إلى رابعة جئتَ الآن؟

ـ اخرج من ذاتك يا إيلاف.. يا سامر.. يا حبيب الوضع عصيب.

ـ كنتَ تمزح قبل أن تنطق، فلماذا في هذه المرة تتحدث بكل هذا القدر من العنف.

ـ إنه لم يفق بعدُ؛ فحنانيك.

ـ من الذي لم يفق؟!

قال خالد على الفور:

ـ ابن أخي اعتصم هنا ولا نكاد نجده، أكد لي أقرب أصدقائه أنه استشهد ولكن أين جثمانه؟

أخوه أمين شرطة وابنه استطاع النفاذ منه إلى رابعة.

ـ لم يستطع منعه!

قالها خالد وتوارى بعيدًا عني، وبدأت الرؤية تتضح لعينيَّ.. إن الصوت ذاته متداخل، والصورة مهتزة، أصوات سارينات كمثل الإسعاف، فيما الصراخ سيد الموقف، والأقدام تتلاطم في محاولة لحمل الشهداء على الأكتاف، بل إن بعض الحاملين للمصابين يصابون بالرصاص، خالد هرول من أمامي، وصابر استدعى عصام- شقيق هالة- بالمحمول، وبكيا في أحضان بعضيهما؛ فهما صديقان من خلالي، ثم قال صابر:

ـ الجثمان الطاهر في طيبة مول.. في إحدى الغرف الداخلية.

ـ نعم هو في أمان مع بعض جثامين النساء.

ـ كانت تصور الوقائع بكاميرا خاصة ذات حساسية عالية فاستهدفها قنّاص.

ـ بل كان هناك بعض المعتصمين لم يستيقظوا بعدُ من نومهم فخافت

من أن يُقتلوا غِيلة؛ فأخذت «صفيحة» وصارت «تنقر» عليها بصوت عالٍ؛ ليفيقوا، فرآها الشرير.

ـ كان قد أشار إليها بعلامة الذبح من قبل؛ فالأمر ليس جديدًا.

ـ كانت بالغة الثبات فيما كنا نتوارى من الرصاص.

ـ والآن هدفنا أن نخرج بالجثمان في سلام.

ـ ومئات الجثامين..

ـ بل إن أحدهم وضع كيسًا لونه أصفر وراءها؛ لذا عرفها القنّاص وعاجلها برصاصة.

ـ يارب رحماك من فعل هؤلاء الذين لا يكفيهم أكبر معجم لغوي؛ لوصف ما فعلوا!

ـ نترقب الأخبار ثم نعرف مسيرة السيارة لنقلها.

ـ هناك شهداء في مسجد الإيمان.. هل نأخذها إليهم؟

ـ المكان بعيد جدًّا الآن.

ـ لنرى.

ـ هناك من يحتاجون المساعدة في المستشفى الميداني.

قلتُ- بعد صمت طويل:

obeikandl.com

ـ أريد الذهاب إلى طيبة مول.. خلف منصة شباب ضد الانقلاب.

ـ الحي أبقى من الميت يا إيلاف.. هيا بنا نحاول التخفيف عن مصاب.

كنتُ أهرب إلى مسجد الرحمن الرحيم أرى في التجمع لدى رابعة العدوية سببًا غير كاف، ماذا لنكون قريبين من القصر الجمهوري لو حدث مكروه للرئيس، فما دور الحرس إذًا؟ إنهم ليسوا مؤهلين، وليست ضمائرهم السبب فقط. بل...

ـ لا بل.. ولا يحزنون. يصعب الزرع في الأرض الفاسدة.

ـ ومن كان يستطيع الفعل إن تأخر الإخوان.

ـ الأمر ليس جدالًا بل تفاصيل بالغة الأهمية.. وموازنات كانت تتطلب حرصًا على اتخاذ قرارات وسطى مناسبة من باب ترشيح آخر مناسب لا يمثلك ويستطيع التقارب مع الآخرين، ولا يكون خائنًا.

ـ هذه المواجهة كانت قدرًا..

ـ أعرف لكن لا تقنعيني بأنه لم يكن في الإمكان أفضل مما كان!

إنني، نفسه، الذي بكى بعنف شديد لما تم الإعلان عن عزل الرجل الرئيس في ٣ من يوليو ٢٠١٣م بكيتُ بعنف أمام جامعة القاهرة، برغم كوني غير منتم، ويصعب الانتماء على مثلي، إلا أنني بكيتُ بكبرياء الألم، بكيتُ سني غربتي في وطني قبل رفع راية للديمقراطية فيه، ومحقق يقول لي في بداية العقد الثالث من العمر؛ بسبب مقال ضد المخلوع:

ـ إما أن تكون معنا، وسبل معاونتنا أكثر من أن نعدها أو تعرفها؛ وإلا فأنت علينا، كلما ذهبتَ إلى مكان، أيًّا ما كان سنقوم بإخراجك منه، مهما كان، ومعنا تطرق أبواب أكبر الصحف في مصر وأنت مطمئن تمامًا، بل نهبك سيارة، وإن شئت زوجة..

ـ ألم يعرضوا عليك- تمام الأمر- أبناءً؟!

بكيتُ رايةً استطاع الإخوان في غفلة من قوى الشر العالمي.. نصبها، حتى الْتأمت القوى واستطاعت الوقوف تجاههم، بكيتُ أوراقي بنصف حقي في التوظيف في الوزارة التي أحببتُ العمل فيها، وحال دون دخولي كلية الإعلام المجموع في الثانوية العامة، لوفاة والدي رحمة الله عليه، وتعطل الأوراق بنصف حقي، وما كنتُ لأنال بعض حقي لولا قيام الثورة في مصر، وها هي شمعتها في نشوة الخطوة الأولى، في تمام السنة الأولى، تتناوب عليها قوى الشر العالمية محاولةً إنهاءها، بكيتُ خطواتي في الغربة مفتقدًا هالة وحضن صغاري، ومجيء شهر رمضان الكريم في أغنى مدينة خليجية دون أن ترتفع رقعة قماش بدينار معلنة تهنئة، فيما تكسر كل الحجز المعروفة وغير المعروفة في احتفالاتهم بنهاية العام أو العيد الوطني، بكيتُ مقولة عمر بن الخطاب القائلة: اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز المؤمن. ووجدتُ من الناس من يهوِّن الأمر علي ويقول لي:

ـ لا شيء على الإطلاق حدث.

كنا في رابعة ظهرًا، الرصاص من فوقنا منهمر، من اختارهم الله تعالى تصعد أرواحهم إلى السماء في ثوان، الخطى متماسكة، أبواب مئات الخيام في كل الاتجاهات تعاني من هبوب رياح اقتلاعها بعد ثوان، الرجال الملتحون وغيرهم لا يتوانون عن المضي بسرعة، ورفع الرؤوس إلى السماء:

ـ ماذا يحدث في مصر؟

ـ اللهم لطفك.

تحركنا إلى شارع الطيران مودعين نصف شارع النصر، ترى هل سنلقى مبنى الدفاع الشعبي ومعناه بعد هذا النهار؟

المباني العسكرية على الاتجاهين؟

محلات بيع الزهور، وتأجيرها دورات المياه بجنيه للداخل؟

الخيام المخصصة لإفطار الصائمين مجانًا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا.

الخيام في منتصف الطريق، أدخل أيًّا منها تاركًا هالة وسط أسرة فيها امرأة محجبة معها طفل يرضع

تقول لها:

ـ إنني من الشرقية، أو منوف، أو قنا.. جئنا هنا من أجل الشرعية والانتخابات لا من أجل مرسي ولا الإخوان.

obeikandl.com

هذه المرأة التي استقبلت هالة في قيظ الصيف، في الشهر المعظم، بل أنامتها على ركبتها، وقالت لها:

ـ حبيبتي أنت مجهدة. بقيَ على الأذان أقل من ساعتين، لدينا من الطعام ما يكفي، وسيفطر زوجك مع الرجال لما يجيء، جمعنا الله تعالى على محبته في هذه الأيام الكريمة المباركة.. ولم يكن من المفترض، وفق مقاييس الحياة الدنيا أن نلتقي، فلماذا تضنين علينا بأن نتناول إفطارًا في يوم شديد الحرارة كهذا؟

ـ فقط لا أريد إقحام نفسي بينك وبين زوجك.. وتكفي غربتكما.

ـ إننا نتناول الطعام صحبة على كل حال.

تلك المرأة التي اشترى الثلج زوجها قبل الإفطار بنصف الساعة، ووضعه في مبرد مقسمًا ألا أدفع قرشًا من ثمنه، وجاء بمانجو ووزعها قبيل الإفطار، ووجبات اشتراها خصيصًا من خارج الميدان، رغم بساطة مظهره ووجهه الشاب، وارتدائه سروالًا من الذي كان يباع أمام باب المسجد ناحية الطيران، السروال البالغ الاتساع المتدلي أسفل الركبة، ذي الألوان المتداخلة، الكاروه الذي لا يزيد ثمنه عن العشرين جنيهًا، مع «تي شيرت» ربما بأقل من نفس سعر السروال، مطبوع عليه مشروع شهيد، وابتسامة على المحيا، وترحيب غير عادي بنا، فقط.. لأن دُوَارًا أصابني ونحن قادمون إلى الميدان من البيت؛ فقلنا نستريح هاهنا، وجه شاب لفَحته الشمس، وقامة نحيفة، وتحرك للشفتين بذكر الله تعالى:

ـ لا كنا والله؛ لو تركناكم تعودون قبيل الإفطار.

ـ سنشتري طعامًا من محل قريب.

ـ ولم لا نأخذ ثواب إفطاركما؟

ملتاعة نفس المرأة الآن بين يديها رضيعتها يجود بأنفاسه الأخيرة، الشحوب الشديد على الوجه، رصاصة في الرقبة، فيما هي ملتاعة تهرول.

ـ إلى أين يا سيدتي؟

تبًّا للشعراء، أساؤوا عبر عقود من الإبداع لكلمة سيدتي قصروها على العلاقة بين الرجل والمرأة، من مفتتح الابتسام وصولًا لدرب الوصل والهجر، أفلا وصفٌ لسيدتي عانت القهر والعنف السياسي في بلدنا من ستين عامًا!؟

أفلا سيدة مثل هذه لقيتكم في طريق؟

ـ إلى القناص.

بكيتُ في مرارة.. وأنا آخذ الصغيرة من بين يديها، لم تتمسك بها، ولكنها قالت:

ـ كنتُ أريد أن أُريها له وأقول.. عاجلني برصاصة مثلها.

هرولتُ وهي في إثري إلى المستشفى الميداني، كم من لغط دار في

الطريق، كم من امرأة محنية الجبهة فوق وجه زوج تبكيه، هاهنا على يمين الواقف فوق المنصة، على يسار المواجه للمنصة كانت لافتة كبرى مكتوب عليها أسفل صور لإعلاميين، ماذا نقمتم من دمائنا حتى دعوتموها لتسيل؟

كان ذلك عند مذبحة التي استشهد العشرات فيها فماذا عن اليوم؟

أسفل اللافتة كانت فتاة محنية على جثة تنتحب في أقصى ما تستطيع من الهدوء:

ـ أوليست هذه هي التي عقدت أو أشهرت المنصة قرانها في اليوم الأول من عيد الفطر المبارك على فتى جميل من الشرقية؟

ـ بلى. وقد مات منذ قليل فتحللت من العهد الذي كان بينهما، ومنذ ساعات فقط كانت تنذر نفسها وعمرها له، وكانت مسيرة (ضيافتها) في بيت أهلها قد انتهت بمجيئه إلى حيز حياتها.

obeikandl.com

-٤-

سألتْ أم هاجر زوجتي في زحام يوم الثامن والعشرين من رمضان عن مكان عملي، إذ إن سابق معرفتنا لها تعود لأيام قليلة قبل مجزرة الفض:

ـ إعلامي.

ـ أما وقد جاء بك إلى هنا فإنه من النادرين الذين يعرفون الطريق لكن إلى أين يصل به؟

ـ إلى حد النقد الحاد أحيانًا.

ـ ادْع الله له.

ـ وهل النقد غير مطلوب؟ أم آفة من آفات عقليتنا الآن ألا تتقبل النقد!!

كانت هالة تكتفي بالابتسام في حياء، فكم تناقشنا ولم تثمر نقاشاتنا عن رأي متطابق.

يوم ٢٦ من يونيو ٢٠١٣م جمعني لقاء مع أصدقاء ودار الحديث حول.. ما البلاد مقبلة عليه بعد أربعة أيام:

ـ هناك أخطاء وليست خطايا من الإخوان، وبعض الخارجين مغرر للأسف بهم.

obeikandi.com

هالني صياح أحدهم:

ـ إنهم لا يخطئون.

ـ هذا التصور في حد ذاته كفيل بالدفع نحو المزيد والمزيد من الأخطاء.. للأسف.

صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى رابعة برفقة هالة لما أقنعتني:

ـ أنت لا تخرج لهم بل لرايةٍ تحبها أن ترتفع.

ـ أخشى من عدم تقبلهم.

ـ لا تخشَ في الحق إلا الله تعالى. لكن أسلوب طرح الحوار لابد أن يكون متقبلًا لدى الآخرين.

ـ تلك هي القضية.

ـ قليل من الحكمة يا حبيب.

استأجرنا سيارة وذهبنا بزوجاتنا، وتركناها لدى البناية ٥٧ بالقرب من شارع يوسف عباس البعيد عن رابعة بمسافة مائة متر أو أكثر قليلًا، ودار ذهني عندما كنا في الطريق إلى رابعة:

ـ هؤلاء الـ «غلابة» يستأجرون سيارات من مال خاص فيحرقها من على الطرف الآخر لهم، فيما هم في السلطة.. شيء كثير على مصر.

ـ الفرعونية؛ أليس كذلك؟

obeikandl.com

ـ فرعونية.. أي أنها مهيأة للظلم وحكم الفراعنة.

ـ شيء ما في هذه المنظومة خطأ.

ـ بل لعله الصواب.

صمتُّ مكرهًا.

كنتُ بعيدًا عن منصة نصبت أمام المسجد، وكان الحر شديدًا، والباعة المتجولون جاؤوا إلى الميدان لما علموا بتجمع مقابل تجمع ميدان التحرير، وكانت خيامنا قليلة في قلب حديقة عامة، عبر السابع والثامن والتاسع والعشرين من يونيه، لا أقبل المبيت، وأدور في الميدان متسائلًا عن الأيام المقبلة، شاعرًا بشعور غامض نحوها، الدكتور محمد أمين الصيدلي المهاجر إلى دولة خليجية مع زوجته، إنه واحد من أنقى من عرفتُ من البشر على مدار حياتي، وإن اختلفتُ معه نظرًا لمعاملة مادية تخص تجارة له مع أقرب الأصدقاء، وملتُ للصديق الآخر، وذهبتُ به إلى القسم في يوم من أيام حكم «مبارك»، ثم تصالحنا، بعدما رأيتُ فيه من آيات البِشر، ولكن الرجل المائل للامتلاء، القادم من حي السيدة، الدائم الهدوء والتفكر في خلق الله تعالى، المائل إلى الطول، الذي لا تفتر يداه عن بذل العون للآخرين، عرف نظام مبارك طريقه إلى بيته مرات، ولما كان بيت عائلة فقد أُجبرَ الرجل على الخروج مع أبنائه وزوجه، وعانى كثيرًا، كما روى لي أيام إجازاتي وإجازاته، إذ خرجتُ مضيقًا عليّ في الرزق إلى دولة، وخرج مضيقًا عليه في الأمن إلى دولة أخرى، الرجل البشري البالغ

النقاء.. حدد موعدًا للعودة إلى مصر نهائيًا، وكان موعد العودة ٣٠ من يونيو، قلتُ لعديله:

ـ قل له يغير الموعد.

ـ أنت تعرف الدكتور محمد.

ـ وأنت تعرف مصر؟!

ـ لا حل معه يقتله القلق هناك.. ويراها قلة شجاعة منه البقاء في تلك الديار فيما تدور هذه الأحداث في مصر.

ـ كذا عهدي بالمخلصين من الإخوان.

ـ اعتراف نادر من رجل يأكل من طعامنا وما يفتأ ينتقدنا في الصحف وفي جلساتنا حتى إن البعض يتهيب من جلوسك مع الشباب الصغير.

ـ أكره التنميط في الحياة.

ـ ولكن هل قصرنا بالفعل؟

ـ من باب دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز المؤمن».. نعم.

ـ ولكن الحمل كان ثقيلًا.. واختيار النزول كان بعد مشورة.

ـ أكره تكرار.. لكن هذا.

obeikandl.com

ـ والبديل؟!

ـ الطرح الوسط.

ـ إنني هاهنا جندي برغم اعتراضي على بعض تصرفات الإخوان.

ـ أحب الإعلاء من قيمة الجماعة في مقابل الفرد.. هذا لكن بالحلق غُصة.

ـ أكان من الواجب أن يدعو الرئيس لانتخابات مبكرة؟

ـ لي تحفظات على الأداء في العام الفائت، وكان المنتظر أكثر.

ـ لكننا لا نقارن بنظام مبارك.

ـ خائن من يفعل.. ولكن في الإمكان أفضل مما كان.

ـ أشعر بأننا لن نرى عزًّا حقيقيًّا في بلادنا.

خيب الله ظنك يا إيلاف.

جاء صديقي أمين إلى رابعة وقرر المبيت في الحديقة أمام منحنى صيدلية كان صاحبها يغلقها ويجلس أمامها، فيما جاء بائع كشري بلفيف من العلب، وذهب يبيع بشارع النصر من رابعة؛ حيث كنتُ محكومًا من ضغط العدد الشديد، بالبقاء في هذا الحيز برغم مجيء أصدقاء من كفر الشيخ لم أكن رأيتهم منذ شهور:

ـ بكم هذه العلبة؟

obeikandl.com

ـ وهذه؟

ـ ألا يوجد باقٍ معك؟

ـ إذًا ماذا سنفعل؟

ـ خذ العلبة وامض يا شيخ وهات الباقي.. إنني والله أثق فيكم كلكم.

لم تكن هالة بحاجة أن تنطلق قائلة:

ـ هذه المقولة لم تكن لتقال في التحرير يا حبيب؛ حيث القتل والاغتصاب الجماعي للفتيات؟!

ـ صدقت.

من هذا القول، وتجول السيدات والفتيات في ميدان رابعة براحتهن؛ نما حب الميدان وازدهر وازدان في قلب قلبي، لا آمن على نفسي في التحرير.. فكيف بزوجتي وابنتي؟! وهاهنا يتم قطع الكهرباء تمامًا عن الميدان منذ غياب الشمس.. ولا أجد قلقًا بنفسي على هالة ولا على صغاري.

جريدة «الناس المُعارضة» قيل لي توزع مجانًا في الميدان، وجدتُ فيها قصة لي تنتقد في جانب من جوانبها مسيرتي مع المعارضة بين صفحاتها في عهد مبارك، والوعود البالغة المرارة من محرر اقتنص فرصة كتابتي للقصة في بداية عهدي بها ووعدني أن أظل على العهد به من مساعدة مهما

obeikandl.com

ازدادت مرارة الحياة كلما دفعت ثمنًا للكلمة، وكان ما كان من الضعف والتراخي البشري المعتاد.

هل الجريدة تخدم المسار المناسب للحراك في مصر برئيس تحرير تخلى هو نفسه عن محرريها القدامى، وهو جريء في النقد ظانًّا أن الحق معه على طول الخط؟

وقد سبق إغلاقها في عصر مبارك، ولم يتعظ الرجل، أم إن الإسلاميين يمضون على درب التشتت ما يزالون في العمل الإعلامي الذي خبرته؟

obeikandl.com

- ٥ -

في طريق العودة بالسيارة الكبيرة المستأجرة يوم ٣٠/ ٦ إذ كان الأمر انتهى بهدوء ولا ثورة ولا يحزنون، كنتُ أتناقش مع أحد مخلصي البشر.. لا أشك، ولكن المنظومة الإعلامية لم يكن يعجبه رأيي فيها، وكان في السيارة معنا أحد «شباب الثورة» المتميزين، ممن تم دسّ قضايا لهم فيما بعد، وعند إحدى نزلات الدائري أصر السائق على تجاوزها.

ـ ولكن معنا سيدات كبيرات وأطفال.. الأقرب إليهم أن ينزلوا من هذا الاتجاه.

ـ ولكني لا أعرف هذا الطريق؟

ـ وهل لا تسير إلا في الطرق التي تعرفها؟

ـ نعم.

ـ من فضلك انزل من هذا الاتجاه.

ـ لا.

الموقف كان صادمًا، ووقف أكبر الركاب قائلًا:

ـ سر حيث تريد ولنا حساب عند دفع الحساب.

انطلق أحد الأصدقاء قائلًا:

ـ لماذا لا تسمع الكلام، أولأنهم طيبون معك؟ ويتحلون بالصبر الشديد، ولو وقعت في يد «بلطجي» واحد لجعلك تسير حيث يريد.

ولما ارتفعت كلمات الاستنكار من الركاب؛ أضاف الشاب:

ـ لأجل هذا يقارب قليل من البلطجية سرقة الثورة التي تعبنا فيها جميعًا منكم.. شلة من اللصوص يسرقون البلد لطيبتكم المتناهية.. فيما أنتم تظنون الخير في صمتكم.

ليلتها شعرتُ أن فكر الشباب يسبقهم بمراحل وأن الغصة التي في حلقي غير مبالغ فيها، ولما اعتذر «سامر» قلتُ له:

ـ ليسوا على خطأ تمامًا بل إن حلمهم هذا يفيد.

ففوجئت بأكبر من في الأتوبيس يقول:

ـ بل الإخوان لا يخطئون.

قالت هالة:

ـ أستشعر أن الموقف سيكون خطيرًا.. ولكننا لن نصمت.

في اليوم التالي قال لي دكتور أمين:

ـ هل من المفترض أن يكون تاريخ نضال الإسلاميين خاليًا من الخطأ؟

ـ لكن من الخطأ الاستسلام لهذا المفهوم.. يجب أن تراعي ألا تخطئ؛ لا أن تستسلم لمسيرة الخطأ فيزيد كثيرًا من أخطائك.

ـ أبو الفتوح ثبت أنه لم يكن أهلًا للمكانة التي كنت تدعو إليها.

ـ أسوأ ما في الأمر تحجيمه باسم أشخاص وترك منظومة الوقائع، كنتَ معنا في إجازة لما فاز الدكتور مرسي، ولي اعتراض على فاز، لما تولى المسئولية بعد بيان تأخر عن موعده ساعتين يوم ٢٤ من يونيو، وبعد

obeikandl.com

مقدمات من رئيس اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية، كنتُ أقف في مقدمة الصفوف من الميدان إلى جوارك في قيظ الحرارة، وامرأة بالغة السمنة تطرح زجاجة المياه المعدنية الكبرى للبيع بسعر يقارب ضعفها، فيما الأعداد أمام المنصة متوسطة، وقد بلغت الأرواح الحلقوم، وأمسك بالميكرفون الدكتور البلتاجي، ولا أحد يشك في حدوث التزوير، والإشاعات قاتلة تقول بمحاصرة ميدان التحرير ومجزرة فيه بعد قليل لإسكات الصوت الثوري إلى الأبد، بل كانت تصريحات شفيق تصبُّ في هذا المسار من إفناء مليون أو اثنين أو حتى ثلاثة في مقابل حياة شعب مصر ما بعد.. بل قبل الثورة، أعرف أنك تريد القول.. ولكن هذا لم يحدث.

كانت كلمات المتحدث تصب في صالح فشلنا في تحمل المسئولية وعودة المؤسسة العسكرية إلى سدة الحكم من جديد، أوليس الأمر قديمًا، والمآسي والمجازر كما في محمد محمود الأولى والثانية وغيرهما.

ـ وهل أخطأ الإخوان فيهما؟

ـ لا أحب الأسئلة الكاشفة هذه التي نريد بها استخلاص نوايا من أمامنا، لستُ بالمتوجه ضد الإخوان ولا غيرهم، ولكني، بالضرورة لستُ على الاتجاه المقابل، في مصر تم تجذير حالة من التقوقع وكأننا قمنا بتكوين ناد اجتماعي من انضم إليه فاز به وفيه، ومن لم يفعل خسر كثيرًا وكثيرًا جدًّا، وداخل البوتقة الإعلامية كم تجذّر هذا الأمر، أحدهم ممن يسترزقون من المال لا أريد وصفه، ولكن خفاف الظل من الأحباب يسمونه «شمال»!، أحد هؤلاء سألني:

ـ أكنتَ في مصر مشاركًا في ٢٥ من يناير ٢٠١١م؟! ولكنك استفدت منها..

إن هذا لديه خطأ في صميم المسيرة للتحول الإنساني الديمقراطي، كما ينبغي أن يكون في الأصل.

ـ دع عنك أن مثلك من المظلومين كانوا حراكًا كالنار تحت الهشيم في مصر وتوجهًا نحو الأسمى، وكنتَ كمعدل تراكمي للفعل الثوري وتوابعه، كان الظلم يعمل في نفوس مئات الآلاف على الأقل من حالاتك إن لم يكن أكثر.. تفور نفوسهم خارج مصر وداخلها، أعنى إذا اشتعلت نيران الفعل الثوري، وفاضت الأنفس به بحضورك أم غيابك وجدتَ من يقول لك.. أوَ شاركت في الثورة؟

ـ وبالطبع فإن القائل من خائني الحياة والمسْتَولين على أموال الناس، والحريصين على تقاضي أموال بأي حال من الأحوال دون نظر إلى مآلات هذه الأموال، أو إن هناك من المعدمين من يستولى على حقهم في المال، يقول لك تلك حصيلة مخصصة لي ولأمثالي فإن لم آخذها أخذها غيري، غير مدرك دورة المال العام العادية التي تخصه كما ينال غيره من عادييي الناس نصيب، وإنه يستأثر بنصيب مظلوم لا ينال من المال ما هو مسلسل يجرح طرفه، إذ إن مثل هذا الشاب ينالون المال حديث الطباعة.. ولطرافة الحال بعد قليل من تولي الرئيس مرسي بكى الشاب أمام أحد أعضاء حزبه.. قائلًا:

ـ هل ستقتلني؟

ولما ضحك أحد أعضاء الحزب المميزين، الذين تمت الإطاحة بهم عقب الانقلاب العسكري وإقرار الدستور وإعلان جماعة الإخوان جماعة إرهابية.

ـ وكنتَ ثاني اثنين طُردا من عمليهما فور إقرار ذلك القانون رغم عدم كونك من المنتمين للإخوان، وترنح قرار ضم نصف مدة خدمتك التي أقر بها الدكتور ثروت مكي أيام وزارة أسامة هيكل الوفدي، برغم هذا كنتَ الثاني في قرار النقل.

ـ وبما أننا ننظر قبيل ٣٠ / ٦ من بلورة مصر المسحورة الممتلئة حتى حافتها بالظلم حتى بدايات عام ٢٠١٤..

ـ بل إنّ تجبّر الاتجاه المضاد يا إيلاف من علمانيين وناصريين وشيوعيين وليبراليين وتصفيقهم للعسكر ليستولوا على مصر؛ رهيب.

ـ أنت تعرف إنهم لم يستدعوهم؟!

ـ وهل يستدعي أحمد الحاج أحمد لتناول الطعام!!

ـ إنهما من بعضيهما، لا اتفاق بينهما لأنهما متماهيان بعضهما في بعض على نحو يصعب تبريره أو تفسيره، صديقي سليمان لما قال له مسعود فهمي ذلك صاح به لقد خرقتَ الأوزون لا المنطق ولا العقل فقط.

ـ صديقك لم يفطن لمدلولات ذلك القول ولا كونه نابعًا من العقلية المصرية المتجبرة المجبسة من عهد مبارك وظلم سابقه وسابق سابقه، وهو كون مثله مدلسًا يدُه مليئة من دماء الأبرياء، بالتمادي في سرقة العقول منذ إعلام مبارك، ولا حل أمامه سوى طرده من منصبه لما جاء وزير إعلامي من الثوار.

ـ والوزير كان خالي البال من كل هذا، تعليماته عبر التغيير الإصلاحي ليس إلا ومستلزماتها على ظهر وأكف المفسدين، وقبيل سحب عملي مني وإبقائي على شعرة لا تسمن ولاتغني من جوع من الصلة قال أحد الفنيين القريبين من العمال:

ـ أنتم لم تعرفوا كيفية التعامل مع الموقف بل لم تقرؤوا الموقف جيدًا.. هل أزلتم عنا أحذيتنا وضربتمونا على أقدامنا حفاة؟!

ولما قلتُ له:

ـ لستُ من الإخوان ولكنهم لا يفعلون.

ـ إذًا فلسوف نمد مثلك على قدميه وكل شريف؛ لأنكم لم تحسنوا التعامل معنا.. مع الشعب المصري.

قلتُ للدكتور محمد الأمين:

ـ كنتُ أود القول لك حمدًا لله على السلامة، وأنا أعرف أنك من المطار إلى هنا حتى حقيبة السفر لم تفتحها، وأشفق عليك من كلماتي، إنني أعرف إن الأنذال تحدوا المسار الثوري، وعوّقوا مصر لحساب مصالحهم الخاصة، وأنهم خاضوا في دماء ٢٥ يناير، ودماء ما قبل ذلك وما بعده، وأن هؤلاء الشهداء في عليين لدى رب كريم.. سيحاسبهم على بلد شوهوه، فأمعنوا في ذلك إلى حد يصعب على التصديق أو حتى مجرد الفهم.. لا أساوي القاتل بالمقتول، حاشا لله، لكني كنتُ أتمنى أن نكون أكثر كياسة من دفعنا في مسارات تؤدي إلى هذا المآل، والتمادي في المسار الثوري حتى لنكاد نستأصل.

obeikandl.com

ـ إيلاف، إن كل ما تقول وتحتج به لستُ معترضًا عليه، ولكني أريدك أن تنظر إلى الأمر من مصاف وسند فقدان أعم، تفقد وظيفتك، ويتراخون في بعض حقك ولا أقول إنه فعل خاص من وزير منتم للإخوان للمرة الأولى فلم يثبت أركان الصواب لا أركانه، وقصر دونه المكان، بل حاول تثبيت نفسه فيه، ولا أتحدث عن دين الرجل وتقواه بل عن بعض ما صنعت يداه.. ولكنه الخطأ البشري يا صديقي وإن تجاوزه بقليل أو كثير. دعنا نتطلع للأمام مقرين أن الله تعالى أراد هذه المحنة.

ـ كثيرون يظنون أن هذا الإقرار يساوي التسليم وإنهاء كشف الحساب عن ما مضى، والعذر لكل من أخطأ في سبيل فتح صفحة جديدة يتولون الحكم فيها بنفس الأخطاء، التي دفعت أعداءهم من بني جلدتهم لاستئصالهم دون رحمة أو هوادة فيما هم متمادون في المسامحة، كما مسح سليمان دموع الزميل وأكد له أنه سيتركه على فساده؛ لأن السيد الوزير غير منتبه.

ـ هؤلاء تغاضوا عن كثير يا صديقي وأفسحوا المجال لأخطاء بالغة السوء جعلتني معكم هنا ننتظر في غد ما سيكون.

ـ سنعتصم حتى عودة الرئيس كما عاد شافيز.

ـ ذلك أملنا.

ـ والحقيقة؟

ـ أما وقد عدنا للواقع الآن؛ فإن ما في غد في نفسي هو فصلي من عملي.

ـ وبعد؟

ـ ذلك حديث نفسي ولا أعرف أين سنكون أنا وأنت بعد شهور قليلة.

ـ سيكون ما يريده الله تعالى.

ليلتها أردتُ قضاء حاجتي ففتح لي موظف البنك الباب لأدخل وبعدي مريض بفشل كلوي، قبل إنشاء دورات مياه خشبية برابعة، ومن عبوات المياه البلاستيكية الكبيرة بعد فتحها للغرض البسيط، وبعد جعل خلفية المسجد بستار قماشي للغرض الثقيل، وبعدها كنتُ أقف في طوابير للفعل.

obeikandl.com

- ٦ -

والدة هاجر التي استضافتني وهالة قبيل الفض بأيام، في أواخر شهر رمضان الماضي، كانت تهرول بحجابها الطويل، جلبابها فيما بقع الدم تغطي الخمار الأبيض وكتل سوداء تزين العباءة الطويلة، كانت تجري أمامي بين يديها ابنتها في النزع الأخير، بدا هذا واضحًا من اللون الأصفر الذي علا وجه هاجر، وجرح غائر في رقبتها فيما الدماء تنزف منها؛ لتغطي طرحة وعباءة أمها، فيما كانت أنفاسها تعاني نوبات من التحشرج:

ـ إلى أين يا أم هاجر؟

ـ إلى القناص.

التقطت الطفلة التي لم تكن قد أكملت العام من بين يديها بصعوبة، شعرتُ بأن روحي تنزف، ماء الحياة في شرايينها ينزُّ بقسوة، لعلها ابنتي؟ بل ابنة القناص الذي استهدفها على هذا النحو المؤسف؟ لماذا تريد أمها الذهاب بها إلى القناص نفسه، هل ستفيق نفسه الشريرة إذا ما فعلت؟

في الطريق أفقتُ إلى فداحة الموقف الذي نعانيه يوم ١٤/ ٨/ ٢٠١٣م بل إن هذا التاريخ لن تستطيع البشرية نسيانه بحال من الأحوال، الدماء تعم المكان، اللون الأحمر سيد الموقف، لم يكونوا يمزحون لما زرعوا الأفق خلف طائرات الجيش والشرطة تهديدات بمنشورات كتلك التي توزع في الحروب كنوع من التخويف النفسي معروف، لم يكونوا يلعبون لما قالوا:

ـ انج بنفسك.. فالإسلام في مصر بخير.

وهل أنتم من تحددون ذلك؟

ماذا عن الإنسانية في حي رابعة العدوية الآن؟!.

يوم ٣٠ يونيو فيما ميدان التحرير ممتلئ، أو هكذا صورت كاميرات الطائرات المميزة وكله على حساب صاحب المحل، لما دخلنا إلى ميدان رابعة كانت امرأة مسنة إلى جوارها شابة في العمارات المطلة على شارع النصر ترفع كلتي يديها بالدعاء الحار وبينهما مصحف كبير، كنا نشير إليها في حبور وأقول لهالة:

ـ كيف استطاعت هذه فهم عمق الأزمة على هذا النحو؟

ـ إنه الحس الشعبي يا بابا.. لا يختفي بحال من الأحوال، وهو أعمق مما نظن بمراحل.

يوم الجمعة ٥ من يوليو دخلتُ إلى الميدان من مكان بعيد، رغم اختيار ميدان النهضة من قبل أتباع الشيخ أبو إسماعيل وسير الإخوان خلفهم، رغم دمعي الثخين في النهضة شعرتُ بأن المقدمة هنا، رغم إصرار الأصدقاء على الانسحاب إلى النهضة كما كنتُ أسميه، وأكّد لي الدكتور الأمين:

ـ هناك المقدمة وهنا السوقة.

مبكرًا، اشتريتْ جريدة الأهرام كعادتي صباح الجمعة وهرولتُ إلى سيارة رابعة عبر الطريق الدائري، شباب من الفيوم كان يتحدث بصوت عالٍ عن اختراق حجب الديمقراطية الوليدة في مصر، كان الشباب

يتحدث في تعقل شديد وانبرى أحدهم شارحًا للسائق أن أمين الشرطة بهذه الطريقة سيضربه على قفاه:

ـ ولكن مرسي لم يوفر لنا جالون البنزين؟

ـ تلك كانت مؤامرة يا «أسطى» وإلا فكيف تم حل المشكلة مع الكهرباء من يوم وليلة فقط؟..

كنتُ أتابع الحوار وبداخلي يتشقق، انتهى عهد الكلام، من لم يرد الرؤية فلا أحد يستطيع إجباره على ذلك، ولكني في داخلي كنتُ معجبًا بأسلوب الشباب، وكان بجواري أحدهم:

ـ إنني الثالث على دفعة حقوق القاهرة منذ عامين، وتم تعيين خريج لا أعرفه نال مقبولًا؛ لأن أباه قاضٍ.

صمم السائق على إدخالنا من ناحية «طيبة مول»- لطيبة معنا قصة يا حبيبتي- وفي الطريق ظهر مكان متسع لدبابات الجيش، لا أدري معسكر أم ماذا!، أما الفتحة المخصصة لدخولنا فكانت محاطة بسياج من السلك الشائك، قلتُ لـ «هالة» أن تهيئ الصغار وتجيء بمفردها، حزنت مني وصممت، وإن كانت عيناها باحَتَا:

ـ لك سابقة.

إنها تقصد يوم إعلان فوز أول رئيس منتخب في حياة مصر، وإن كنتُ أرى عمرو بن العاص أرقى ديمقراطية حكمتْ مصر من قبل. قالت هالة:

ـ مال هذا بذاك؟.

ـ ذاك رأيي!

ضحكت بصوت هادئ وصمتت.

لما أعلن فوز مرسي لا أعرف متى سجدتُ لله ولا متى قمتُ؟ ولكن صديقي صابر كان أسرع مني بداهة إذ لما أعلن المستشار فاروق سلطان العدد الحائز عليه شفيق من الأصوات أدرك صابر- فقد كان علمي رياضة- أن مرسي قد حاز النسبة الأعلى، ومعه عدد كبير من الشباب؛ فسجدوا.. وعمت الفرحة مصر كلها، وتكلم البلتاجي هادئًا رصينًا فأكد أن مصر مقبلة على تاريخ من العدل ليس بالقليل، وزعنا مياهًا معدنية- لم نجد غيرها- على العابرين، وبكيتُ يومها في الميدان فرحًا وقلتُ للشباب:

ـ الفضل لله ثم لشهداء شارع محمد محمود فلا تنسوهم.

أولئك الذين ضحوا بأرواحهم لتحديد موعد الانتخابات هذا!

لم ينقض الوقت إلا وكان الميدان قد امتلأ عن بكرة أبيه، حتى لم يعد هناك من موضع لقدم، احتجتُ لدخول دورة المياه، عادة مرضية أكسبني إياها الخائن الحاكم من قبل من كثرة ما مرت بي من مآس، أخذني أحد قدامى العاملين في الدولة والملتحق بمترو محطة محمد نجيبً إلى تلك المحطة، ما هذا الألق والزخم، آلاف الشباب يبذرون الأمل، ويسبون شفيق بأقذع الألفاظ فيما الفتيات في المنتصف فرحات، هل هذه الصفحة الجديدة من تاريخ مصر سيتركها الغرب.. بل دول العرب؟

لم تفلح هالة في الوصول إلى الميدان بجسدها لكنها قالت لي:

ـ كن في الفرحة التي أنت الآن فيها ودع عنك التفكير.

ـ مُرسي.. مُرسي..

حناجر لا تمل من الهتاف، ومعركة سقط الشهداء فيها بالعشرات، مسيرة رائقة، بالكاد دخلت دورة المياه وقال زميل لعم مصطفى مطر:

ـ لا تفرحوا؛ المعركة لم تنته.

ـ بل هو مسار لابد للدولة أن تتخذه.

ـ نحن هنا ما زلنا.. سمّنا فلولًا أو ما شئتَ.

نحن لسنا كأي دولة.

أفسدت كلماته شيئًا غير قليل من فرحتي، وفاجأني زميل سلفي في عملي الذي طردتُ منه ينظر إلى فرط فرحتي بتوجس:

ـ انتهت أيام الغربة يا هالة ورسا رحلنا على أرض الوطن، كما كان يقول الراحل إبراهيم ناجي..

انهمرتُ في فرحة العابرين بعشرات الآلاف في محطة مترو التحرير، ولم يكن يخطر على بالي أنها ستغلق بعد غياب صورة هالة في غير ملابس الخروج، إذ لم تعد زوجتي التي أراها بملابس المنزل وما عداها، بل صارت، بعدها، خطيبتي التي ما أراها إلا بملابس الغياب أقصد الخطبة، وصلت بالكاد لمقدمة شارع محمد محمود، وهناك كان مطرب شاب يغني للثورة والشباب والإخوان، وعدتُ إلى هالة، وكانت ليلة الفرح الحقيقي لتتويج الثورة، وإن بقيت غصة في الصدر مما قام به مرافقي في رحلة العودة من تدلل حرص خلاله على تذكيري بما عده من أخطاء في، وكان الرجل صاحب فضل إذ أنقذ وزوجه ابنتي الصغرى من مرض عارض قاتل فيما كنتُ في الغربة.

أيام وحضرتُ تنصيب الرجل في ميدان التحرير وفتحه لصدره، وأدركتُ يومها من فرط محبة الجماهير له أنه لو أراد إعدام ألفين من الظالمين في الميدان لفعل، لم يكن من مكان.. لا لي ولا لابني إسلام ذي العشر سنوات، وكانت ابنتي الصغرى قد تجشأت من فرط الحرارة المسلطة على الميدان منذ الصباح الباكر، ذهبنا وتناولنا الإفطار في جاد باب اللوق خوفًا من أن يقوم الحرس الجمهوري بسد الميدان أمام الداخلين:

ـ ألمح تقصيرًا أمنيًّا هائلًا يا إيلاف؟

ـ هل يتوافق هذا مع نهج حُسن الظن الذي تحبينه؟

ـ وبعدها معك! اتفقنا على تسمية الخطأ خطأ.

ـ الرجل لا يتم التعامل معه على كونه رئيسًا للجمهورية ويوم فاز تبعه رئيس وحدة المقطم التلفزيونية ليلقي بيانًا من هناك، لا وزير إعلام ينتظره، إذا كان الرئيس مرسي لا يستطيع العبور من هنا إلى ميدان التحرير إلى التلفزيون، لفرط الزحام، فإن الوزير كان يستطيع ياهالة، يومها كان الرجل يرتدي بذلة ربما من قطعتين كتلك التي كانت في ميدان التحرير، ويبلل أصبعه بطرف فمه لما يريد قلب الورقة، ويقرأ من أوراق إذ لم يتم توفير جهاز ليقرأ منه، الرجل يعامل كضيف ما يزال على مؤسسة الرئاسة، ولما قرأتُ الشروق، اليوم السابع، المصري اليوم، في اليوم التالي؛ ترسخ لدي شعور أنهم يعتبرون الرجل دخل باب الرئاسة من باب الخطأ فهل سيستطيع تصحيح الخطأ الذي في أنفسهم؟

استمعت هالة ثم نظرت للاتجاه الآخر، ولم تلبث إلا أن أحاطت بابنتي الصغرى «دعاء» تاركةً الميدان لي ولإسلام، وإن كانت معي

حينها، ما تزال، بين الأنفاس تكاد تقتل ابني، حملتُه فوق رأسي ليتنفس، لا مكان لقدم ولا نسمة هواء في الرابعة عصرًا في الصينية لا في الميدان، أوقفت إسلام على كرسي، خلفية الكرسي لرجل كان يقف عليه، وسط انبهار جارف لما بدأ مرسي في القسم.. انهار الكرسي، قالت هالة:

ـ لا بأس حافظ على ابننا وسيحافظ على مصر مهما حدث.

فيما كنتُ أمضي كان شاب يهتف:

ـ رجل محترم والله.

ـ لماذا؟

ـ يقول.. ليست لي حقوق وإنما علي واجبات.

وبعد قليل كانت الجموع الهادرة في التحرير تدافع عن فتاة يحاول شريرون اغتصابها، لكن قيل إن الله سلم وتم انتزاعها منهم.

كنتُ أعرف أن الحمل ثقيل عليه، وكان كل يوم يحمل أخبارًا سيئة، عبر الإعلان الدستوري الخاص بالجيش المحافظ على مصالحه من الدولة العادلة التي تكاد تبدأ في المسير في بلدنا، ولدينا أخبار متناثرة تؤذن بفشل الرجل في الصحف القومية التي كانت أداة الظلمة في كل وقت وحين، حتى كانت العشر الأواخر من رمضان واستطاع إزالة طنطاوي وعنان.

وكان حدثًا.. كان يمكنه البناء بقسوة عليه لولا أنه تأخر كما تأخر لما فتح صدره في ميدان التحرير، لولا أنه اختار من اختاره ليفعل فيه وفي مصر الأعاجيب.

obeikandl.com

قالت هالة:

ـ ذهب ذهنك حتى ١٢/ ٨/ ٢٠١٢م أليس كذلك؟

ـ كيف تعرفين ما أفكر فيه؟

ـ «عِشرة يا بابا».

ـ لكن أين أنت الآن مني؟

ـ ... .

يوم الجمعة ٥ من يوليو بعد البيان العسكري الانقلابي بامتياز سبقتُ هالة إلى رابعة وتركتُ الصحاب في النهضة، وفي باكر الصباح دخلت الميدان من أحد أطرافه مع عشرات الشباب الذين أزالوا الساتر الحديدي تمامًا، فيما كان رجل صعيدي يقف بمفرده أمام أفراد الجيش صائحًا، وفي يده مصحف، ورداؤه جلباب تحته صديري، ربعة لا هو بالطويل ولا بالقصير، قمحاوي اللون، معروق الوجه في نهاية العقد الخامس من العمر، كان يقول:

ـ شد يا سيسي قابل يا سيسي الشعب جايلك يا سيسي.

ـ شيء خارق لأي تصور أو عادة يا هالة؟

ـ الرجل يتصور أن السيسي أمامه، وإنه سيقتنع بما سيشاهد.

ـ تصرف يا حبيبي.

ذهبت إلى الرجل المنفعل، المتحرك أمتارًا للأمام وأخرى للخلف:

ـ يا عم الحاج هيا معنا إلى الداخل.

ـ لماذا؟

ـ أخشى عليك منهم ابق على نفسك.

ـ دعك مني.. دعني.

أجبرني على المضي، في الداخل بحثتُ عن صديقي صابر في مدخل إحدى العمارات، كان يُطعمُ صغاره، صليتُ الجمعة في منتصف الصفوف في حرارة غير متوقعة، خطب الدكتور جمال عبد الستار عن الحفاظ على العهد، والآيات والأحاديث الدالة على ذلك، واللواء الذي ينصب للغادر والخائن، ناصحًا إياه بالتوبة إلى الله والندم على ما بدر منه، وبعد الخطبة، كانت هالة قد جاءت بنفسها مع زوجة صديقي صابر، قال الدكتور صفوت:

ـ بلغنا أن الرئيس محتجز في دار الحرس الجمهوري، وأن الأخيرين طلبوا التوجه بأعداد كبيرة إلى هناك كي يستطيعوا الإفراج عنه، ولما كنا قد حذرنا فلا مجال من الاتجاه إلى هناك، الآلاف اصطفت، يدي في يد صابر من ناحية وهالة من الناحية الأخرى وفتاتان في آخر الصف، الآلاف تهدر إلى دار الحرس الجمهوري:

ـ أين هي؟

لم تكن هالة لتسمع ولكنها كانت تستطيع أن تجيب:

ـ لا تسل.. هذا موقف للرجال فقط.

كان البيان يوم الثلاثاء، الأربعاء انفلتت آلاف إلى النهضة، أمام حديقة الحيوان كانت المئات يمنعها الجيش من الدخول فيما تشكيلات

تمنع مجرد العبور على كوبري الجامعة للقادمين من شارع القصر العيني والمنيل، إلى أي مسار أنت سائرة يا مصر؟

هرولتُ الخميس ٤ من يونيه، شاب مصاب في قدمه فيما الشباب غير مصدق تهتف لمتطي الدبابة:

ـ إحنا اخواتك مش إرهاب.

ـ لم تقتلهم؟

ـ حرام عليك.. الدم ده حرام.

ـ ربنا لن يرحمك.

كان الرجل يتصبب عرقًا.. وإلى جواره شاب صعيدي يحاول تهدئة العشرات هرولنا إلى آخر، كان أحد الشباب يشير إلي، على الجانب الآخر من حديقة الحيوان تمامًا:

ـ أنت أطلقتَ الرصاص على قدم الشاب بلا سبب.. لماذا؟

ـ الإنسان لما يُمسك متلبسًا بالجرم الشديد يبدو رخيصًا للغاية، يحاول الصراخ فلا يستطيع، يحمر وجهه، يشير بالاعتذار وكأن يديه التصقتا برأسه، قائد التشكيل يمشي إليه يأمره بالانسحاب الفوري فيما رتبة من الشئون المعنوية ينبري بحديث يلهينا عن الشاب.

ـ هل أنتِ معنا يا هالة؟

ـ طلبتُ من الله تعالى أن يسمح لي بمرافقتك فلعله يجيبني على الدوام!

obeikandi.com

ـ أأنت أنتِ يا هالة؟

ـ منذ تعليمك، منذ جامعتك في كفر الشيخ وأنت تخرج إلى النيل مساء؛ فإن لم يأتك ذهبت إليه أنت تطالبه بأن يسفر وجه القدر عني، حتى قرب مزلقان السكك الحديدية، كنتَ تشعر برائحة أقرب برائحة تشبه رائحة الفول المدمس لما يختلط بالصباح، ولما أجيء إليك تسألني من أين جئتَ؟

ـ كان القائد المعنوي يقول.. هاتوا لي عددًا هائلًا ندع رئيسكم.

فيما شاب صغير يهتف:

ـ الإخوان أخطئوا.. لكنهم إخواننا.

تحركت المئات بل الألوف هادرة لمبنى الحرس عبر شارع الطيران، لا أحد يستطيع وقف تدفقها، عند وزارة الدفاع دخل الشباب وأغلقوا باب الوزارة تمامًا، وكذلك نقاط التترس خلف النواصي العليا العالية، وكنتُ من أوائل الواصلين مع هالة وصابر والفتيات، وحاولتُ النزول من فوق الرصيف نحو باب الحرس، كان على بعد قرابة عشرين مترًا فبدأ إطلاق القنابل المسيلة للدموع، ابتعدت فيما اقتربت زوجة صديقي، فنالتها قنبلة مسيلة في كتفها فبلغ الألم بها مداه، رحتُ أبحث عن سيارة إسعاف، وجدتُ اثنتين قال سائق الأولى:

ـ معي حالة حرجة.

أما الثاني فاستحييتُ من نفسي لما وجدتُ آخر يستحثه أن يأتي معه.

سيدة محجبة جميلة شابة كانت تقف في الحديقة في منتصف الطريق من شارع صلاح سالم..

ـ قررتُ اصطحاب زوجة صديقك بصديقك إلى الإسعاف..

ـ لماذا يا هالة؟

ـ سيدة مسيحية من شبرا؛ حيث بيت أمها قالت لها.. «باي باي» حجاب وإسلام.

عدتُ بهالة إلى قرب باب للحرس، كان النداء على شباب الثورة وفي مقدمتهم علماء الدين لعمل ساتر أمام باب الحرس، وهنا لم أدر بمكاني..

ـ بدأ إطلاق قنابل الغاز المسيل، ونداء الشباب.. اثبت؛ فثبتنا. وعيني ما شافت شيئًا نار في قلوبنا بعد أعيننا وأفواهنا أما الرصاص فقد حصد أرواح ستة في نفس اللحظة. قلتُ لك: اخفض رأسك.. فخيل إليك أن الرصاصة اجتثت روح شاب آخر بل رأيت وجهه ممتلئًا بالدم. شهيد في مجزرة الحرس الجمهوري الأولى، الشباب يدق أعمدة الإنارة، النيويورك تايمز تعلن فشل الانقلاب، السيدات يغنين، وأنت بينهن للرئيس، الطائرات ترسم قلوبًا في السماء، ثم طائرات أربعة ترفع أعلام ألوية في الجيش، والشارع ضاق بمن فيه حتى رابعة، وقيل ٣٥ مليونًا، أسرع إلى الهاتف أكلم صغيري:

ـ أما من جديد؟

ـ يكملون طريقهم يا بابا.

تقول هالة نفس الكلمات.

-٧-

بدأت رحلة رؤيتي للدم منذ ٤ من يوليو بشكل مباشر عبر الشهداء في ميدان النهضة وفي رابعة، الدم رأي العين، وانشقاق القلب لفرط الظلم، أو هذه مصر؟

ـ البنت تجود بأنفاسها يا إيلاف!

ـ إنها لم تبلغ العام بعد يا هالة!

ـ وأين هالة يا سيدي.. قلتُ لك دعني أذهب إلى القناص.

ـ إنها تهذي يا هالة!

ـ بل لعلها تنطق بالحقيقة.

ـ نهر الدم طال كل عائلة في مصر.

ـ وطالنا يا حبيبي.

كانت الفتاة، فاقدة زوجها الذي لم يبنِ بها،ولم تزف إليه، التي وصلت إلى بر أمان عبر زوج في الدنيا، تلك التي كَانت ثاني أيام العيد فرحة مزهوة بزوجها، وبانتقالها من بيت أبيها إلى بيت دائم لا تكون ضيفة فيه، وها هو الحلم يضيع والشاب يموت في عرض الطريق.

أخذ الطفلة مني أحدهم، فيما صعقتُ لدموع الشابة، وكانت المنصة باختصار تحترق..

إلى أين أمضي والدماء في كل مكان؟

obeikandl.com

أأخرج وأترك هالة وقد صمنا وقمنا هنا معًا!.. لا بد أن أجدها، قال أحدهم لي.. إنها في طيبة مول؛ فلم لا أذهب؟

ـ وإن ذهبتَ فلن أجيء معك!

ـ لماذا؟

ـ وجدتُ صحبة أخرى.

من بجواري تمامًا مصعب الشامي دعاني للإفطار معه أحد أساتذة جامعة الأزهر المساعدين، صامت طوال الوقت، مبتسم على الدوام، عند إفطار اليوم التاسع من رمضان قال لي:

ـ اسمي مصعب.

ـ اسمي إيلاف.

نال لقيمات وذهب إلى الخلف، خجلتُ من نفسي إذ ما يزال طريق الإفطار لدي في خطواته الأولى، قال فيما يفتح المصحف:

ـ إنني مصاب بمرض يستدعي أن أتناول إفطاري عقب العشاء.

همس أحدهم للآخر فيما سمعت هالة التي أفطرت يومها في البيت وقالت لي في نفس الوقت:

ـ هو يخبره بنفس القصة، لا يريد القول بأنه إنما يأكل لقيمات.

ـ لماذا ياهالة؟

ـ زهدًا في الحياة واتباعًا لسنة المصطفى، صلى الله عليه وسلم.

قام بعد دقائق ليقطع ثمرة بطيخ ويأتي بعنب، سمعتُ هذه المرة في وضوح:

ـ لا يأكل الفاكهة إلا زنة عشرة جرامات فيما يقوم بخدمة الجميع.

مصعب الآن ملقًى على رصيف أصابه قناص في رأسه، هرولتُ إليه وهو يتلو الشهادة، كان على فخذ أحدهم يبكي بمرارة.. ماذا فعل؟

قال الرجل:

ـ أو لا تدري؟ قال لا إله إلا الله!

كانت المرأة تريد الذهاب إلى القناص لكي يقتلها كما قتل ابنتها وأصاب زوجها في مقتل.

بقينا ليلتها عند الحرس الجمهوري ليلة السبت قبل رمضان بأيام، نصبوا سلكًا شائكًا حول مبنى الحرس من جميع الاتجاهات:

ـ وماله يجعل الأمر أكثر أمانًا.

لكن من يريد التحرش بأحد يا هالة لن يمنعه شيء.

ـ أأنت خائف؟

جميلة التحرش هذه.

بقينا حتى بعد منتصف الليل، لا مكان على رصيف من كثرة البشر، وهرولنا في المسافة بين مبنى الحرس ورابعة، وكان الشعار قد رفع خلف المنصة للمرة الأولى يقول.. الثورة إسلامية، انقبض قلبي لا أدري لماذا؟

ـ لماذا هي إسلامية؟ أفلا نحقق لهم أهدافهم بقسمتنا بدلًا من أن نتشعب أكثر؟

ـ كنتُ أود قول نفس المعنى يا هالة لكن اللفظ هرب مني.

خرجنا خلف سيارة إلى السيدة عائشة هناك رأى سائق يبدو أنه ليس على ما يرام مثل زوجتي فكاد يدهسنا، صرختُ فيه بملء صوتي؛ فقال بصوت مترنح:

ـ أراكما، لا تخافا.

ـ إنه «شارب» يا عزيزتي.

ـ لا تخف لن أغادرك الآن.. سأغادرك في الوقت المحدد لي.. وفي مكان أفضل.

ـ نذهب معًا يا هالة.

ـ لكنني سبقتك بالنية يا حبيبي.

ـ وما يدريك؟!

أمسكت بي أكثر وقالت في ثقة:

ـ واحد منا ينبغي أن يبقى على قيد الحياة لرعاية صغارنا.

عدتُ حزينًا للغاية:

ـ كنتِ حلم حياتي منذ الصغر، منذ نعومة أظافري، منذ وفاة أبي.

ـ وسماعك الأطلال في الشوارع، وذهابك إلى دور العرض السينمائي بدلًا من الامتحانات.. ما هو قادم يا حبيب لا يقارن بما عانيت من قبل وستذكرني بالخير فقد عُرِضَ لي ما هو خير من الدنيا ومعاناتها.

انتقلتُ بين رابعة والنهضة والحرس على مدار الأيام التالية، ووصل القتل إلى النهضة، بعد يوم فقط، كانت هالة في الطريق فيما اختلط الحابل

بالنابل، وتم الإمساك بأحد القتلة وفي يده مسدس بعدما أصاب اثنين ورأيتُ الدم يسيل؛ فانقبض صدري.

ـ تُرى ماذا في الغيب لمصر؟

ـ فترات الثورات مُرَّة يا حبيب.

رئيس قطاع عملي بالتلفزيون المصري الشاب المعين من قبل المجلس العسكري لما تولى الإعلام أحدهم كتب على ورقة أمامه لما كنتُ أحاول زيارته لإعادتي لعملي، ولم يفعل، بل أمعن في إيقافي على باب المبنى لعل هذا يردعني عن طلب حقي، لما فاز الإخوان في الانتخابات كتب في مكان بارز:

ـ على فين يا مصر؟!

الرجل الذي كان يرفض أن تتعين مذيعة ترتدي شبيهًا بالإيشارب، برغم نيلها موافقة لجنة، وكون زيها لا ينتمي للزي الذي يحاذر بحال من الأحوال:

ـ تخرجين للشاشة بهذا الإيشارب على جثتي!

والرجل تم انتدابه لمؤسسة رئاسة الوزراء خبيرًا إعلاميًّا في عهد دكتور هشام قنديل.

ـ شيء يصيب بالجنون يا هالة؟!

ـ تريد القول.. على فين يا مصر؟ إلى لطف الله يا حبيب.

ـ يا رب.

بعد نطقي بالكلمة علمتُ الفارق الكبير بين إيماني وإيمان هالة، الأول يدفعني لكتابة القصص والروايات ظانًّا بأن ميداني الرئيس في الحياة هو الجهر بالكلمة أما هي فتقوم الليل بعد نومي، وتدعو النساء بالفعل إلى دين الله تعالى.

علماء الدين بيننا وبين الجنود الذين يحرسون أمام البوابات الخاصة بالحرس، نبهني أحد الأفاضل إلى أن زي الحرس بالداخل يشير إلى كونهم من الشرطة لا الجيش، قالت زوجة صديقي صابر: إن من أطلق النار عليها عبر القنبلة المسيلة للدموع؛ يرتدي زي القوات الخاصة. جاءت سيارة بمكبر صوت عليها ثلاثة من علماء الأزهر الشريف، صاروا يحثون الشباب على السلمية، فيم كان العدد يزداد، أخذتني هالة من يدي لتريني الشباب وهو يعطي جنود الجيش زجاجات المياه ليملأها له، والأخيرون يقومون بذلك بسعادة:

ـ شعب واحد.

ـ أبقاه الله كذلك.

ليلة الثامن من يوليو كان رمضان قد اقترب، وفي قلب الزحام وعرض شاشة كبرى لقناة الجزيرة فوق المبنى المواجه للحرس، وهو مبنى حكوميٌّ، وفي قلب الزحام، وباعة التين الشوكي، والذرة المشوية، وفي الزحام غير الطبيعي كنا نتناقش مع شباب حاد الاعتراض على الإخوان بل إنني في لحظة قلتُ:

ـ لم لا ندخل لإخراج الرئيس؟

ـ إذًا يقضون علينا جميعًا.

ـ وليكن موقف.. هل ستجدي السلمية؟.

المكان الخاص بالحراسة أمام الحرس كان به عدد من الصغار بخاصة من الفتيات البالغات الجمال، يتحدين في ألق تلك الأجواء، صعدن حتى تجاوزن سقف الكشك المبني، وفي أيديهن بالونات بألوان زاهية، العميد مجدي قائد الحرس يعلي من صوت سماعات الصوت الداخلية للحرس فيصرخ دكتور سلامة عبد القوي، المتحدث باسم وزارة الأوقاف:

ـ منعنا عنكم حتى «أشعة الليزر» في يد الشباب؛ فلماذا الاستفزاز؟!.

دقائق وتم تخفيض أجهزة الصوت:

ـ إنهم لا يريدون لجنودهم سماع أصواتنا.

بعد الواحدة في ليل الصيف تحركنا، قرب تحركنا قلتُ لهالة:

ـ ما هذا؟ أهي حجارة مغطاة بحصر بلاستيكية!؟

ـ صغيري بالغ الطيبة.. إنهن أخوات لك يردن النوم فلابد من أن يفعلن هذا كي لا يطلع عليهن جاسوس لا يراعي الله تعالى.

كدتُ أبكي لمرآهن بشدة، كن أمام عمارات الحرس الجمهوري وكنا نغادر المكان فيما همس لي صابر:

ـ من الخيانة بمكان أن نمضي ونترك فلذات أكبادنا هؤلاء هنا.. لو أرادوا فض جمعهم لفضوه في الفجر.

ـ بخاصة بعد ذهاب قرابة ثلاثين ألفًا مع الدكتور جمال عبد الستار لوزارة الدفاع بغرض التفاوض حول إخراج الدكتور مرسي.

ـ ومن هو الدكتور جمال في عالم التفاوض السياسي؟

ـ بل صرح أنه في غد قد يأخذ ثلاثمائة ألفًا، ويذهب بضعفهم عشر مرات.

ـ فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

عند العاشرة صباحًا أيقظني صابر قائلًا:

ـ أأنت نائم؟

ـ نعم.

ـ فعلوها يا صديقي وانفردوا بهم.

قتلوهم في الصلاة بدم بارد.

ـ صلاة الفجر؟

ـ نعم؟

ـ من؟

ـ من تعرف.

كانت ليال جبنتُ فيها عن طلب الشهادة فما نلتها.. نالتها نساء جئن من الإسكندرية ودمياط ورأس البر بصحبة أطفال بالغي الصغر؛ لأنهم صدقوا الله ما يريدون؛ فصدقهم تعالى.

في اليوم نفسه التاسع من يوليو كان الشعار خلف المنصة في رابعة قد صار..

obeikandl.com

الموجة الثالثة من موجات ثورة ٢٥ من يناير

في إشارة لكون الموجة الثانية في محمد محمود تلك التي تأخر الإخوان عنها رسميًّا، وبدأت القوى الثورية التخلي لا التأخر بداية من أحداث المساء المسماة بالمذبحة الثانية للحرس الجمهوري.. هل تعدى العدد المائة.

ـ يعلمهم الله تعالى يا إيلاف وهو القادر على حسن مجازاتهم.

obeikandl.com

- ٨ -

مجزرة الحرس ستليها مجازر أخرى..

كانت القراءة واضحة في شرايبني، وقالت المنصة:

ـ الحرس لم يعد أمانًا لنا.. لا ضير إذًا كل الشوارع المحيطة بنا في رابعة والنهضة هي لنا عبر المسيرات بما فيها مبنى الأمن الوطني، والمخابرات الحربية بل الحرس الجمهوري نفسه، ثاني يوم صرنا إلى الحرس ولم نتوقف بل سالت دموعنا فيما قالت هالة:

ـ اللهم ألحقني على خير قريبًا.

سرنا حتى كلت الأقدام وعدنا مزهوين بشجاعتنا، فيما كان علينا الاستعداد لشهر رمضان بقيام الليل، منذ الليلة الأولى لا التراويح فقط، وبدأت الملائكية في الميدان.. من ليس معه طعام يأكل بلا مشقة أو تكليف ممن معه.

أول يوم في شهر رمضان كانت أكبر موسوعة دخلت موسوعة جينيس في أكبر عدد صائمين أفطر في مكان واحد في رابعة، وأقسم الأصدقاء علينا أن نفطر في النهضة، ركبنا تاكسي من البيت، رآنا جارنا، الضابط في الجيش ونحن في الشارع فسلم من السيارة وهز رأسه في أسف، فيما هز رأسه في أسى خال الأولاد، دخلنا الميدان، وكان كهربائي الحي، الرجل الأشهر قد دعانا جميعًا إلى الإفطار في النهضة، فيما كانت هالة تجهز الطعام مع زوجه كان علي لساعة أن أكون مع قوة أمن الميدان..

أقف لدى البوابة قريبًا من آخر أبواب الجامعة أتذكر خطل الكلمات من أنصار أحد الكرماء فور الإعلان عن عزل الرئيس منها اعترض الجيش لا أدري رقمه الميداني، ثم سجود الناس وإثبات كذب الخبر، شغل مخابرات.. تمتمت مع هالة في نفس الوقت.

أفتش العابرين مبتسمًا، فيما تدخل سيارات محملة بالطعام، طعم رمضان هنا له فرحة أخرى، أناس بالآلاف قادمون للإفطار في أول أيام الشهر الكريم، جاءت مواسم للعبادة بشكل فريد.

قبيل الإفطار بدقائق.. قلتُ لصديق والد شاب في الجيش:

ـ ماذا نريد من بقائنا هنا؟ بصراحة أشعر أننا نعيد سيناريو مكرر لثورة يناير.

ـ وهل يكرر التاريخ نفسه؟

ـ بصراحة لا أعرف.. كما لا أعرف سند الاعتصام وإن كنتُ مستمتعًا به في رابعة.

دخلت هالة إلى الخط، رغم عدم حضورها بعد:

ـ الطريقة المهينة في معاملة الرئيس والملايين ممن اختاروه هي من دفعتنا لنخرج لا نصرة لمرسي ولا غيره.

فيما قال كمال محدثي:

ـ لن يعود دكتور مرسي ولكننا نريد العودة إلى الصندوق.

ـ بل يعود الرجل.

okelikanal.com

تعجب محدثي فيما كانت هالة تكمل:

ـ لفترة تكريمية.. ولو ليوم واحد.

منقسم الرجل حول ذاته، حول ابنه في المؤسسة العسكرية، يريد الإبقاء عليه في مكانه، وحول واجبه الوطني من الاعتراض على تدخل الجيش في الحياة السياسية من جديد عقب خمسة استحقاقات انتخابية وفشله في بناء أرصفة متساوية في الشوارع فقط خلال ٦٠ سنة من حكمه مصر.

ـ كأننا أمام فيلم العاصفة؟!

ـ بخاصة أن اللقطة الأشهر منه كانت هنا أمام جامعة القاهرة.

أحد أبرز الشيوخ مبصري البصيرة جاء لصلاة التراويح فأجاد القراءة، فيما كانت دورات المياه الخشبية تسد جزءًا صغيرًا من الحديقة أمام كلية الهندسة، ثم مكان الوضوء.

عقب الصلاة ركبت مع هالة في الكرسي الأمامي مع سائق شاب عائدين إلى البيت، أوقفه كمين عند أكبر المساجد في الضاحية التي أقيم فيها:

ـ لماذا تخرجون؟

ـ انظر إلى الكمين ولن أحتاج معك إلى كثير رد .

دقائق وفاضت عينا الشاب بالبكاء، إذ كان المخبر يضرب السائق مماثله بقوة على قفاه خلف سيارة الجيش..

في الصباح كان ميدان رابعة على أشده، سيارات الإسعاف في الزاوية اليمنى من يد المقبل عليه، شباب بغطاء للرأس من شدة الحرارة يهتفون:

ـ مرحب بالثوار.. أهلًا.. أهلًا بالأحرار.

سواتر من الرمل في عبوات أسمنت ورمل أمام مدخل النصر، ورذاذ مياه مثلج في الحرارة الشديدة تنثره نساء للنساء وأطفال للجميع، آخذ الماء من زجاجة مثلجة بل بها ثلج فأسكبه على رأسي، تلحق بي هالة تهتف في لطف:

ـ تأخذ حق آخرين في التبرد مثلك.. وتكاد تصيب نفسك بالمرض.

دائماً ما تخجلينني.. هتفتُ داخل نفسي.

إن الزحام في طريقنا شديد يا إيلاف سأبقى في خيمة، ذهبتْ لتقرأ قرآنًا، وتتحدث مع سيدات فيما أخذتُ أدور في الشوارع الجانبية؛ لعلني أصل إلى حقيقة جديدة تشفي غليلي، كان الإعلام على أشده بعد مذبحة الأمس، بل سيارات البث التلفزيوني المتروكة منذ أيام الوزير الإخواني تم فك شفرتها لتنقل للعالم ما يدور في رابعة بلا مواربة، قال رجال المنصة في ثقة الحقيقة كما علمتها وأفاضوا في ذلك قبيل الإفطار، وجاءتني هالة أقسمت ألا نتناول طعامًا إلا عندما يتناول الجميع الطعام، وأن نأكل شيئًا مما جلبنا معنا، ونترك الناس ينهون طعامهم.

ـ يا خبر أنتم لم تفطروا.. لم يا أبنائي تكتل الطعام أمامنا!.

صلى بنا الشيخ أحمد عيسى المعصراوي شيخ المقارىء المصرية، ولما تأخر النصر، كنتُ لا أستسيغ اللفظ في البداية:

ـ هم فرضوه علينا يا إيلاف للأسف.

رددتُ للأسف..

لما تأخر الحل غير الرجل من وجهته ولم يعد ونسي الناس الأمر.

في طريق العودة سرني كثيرًا وجود سيدات هبطن حي الدويقة الفقير وفي يد كل واحدة منهن عدة وجبات أخذنها من الاعتصام بل على الدائري نزل رجل وبصحبته جوال كبير به خبز.

إن خيرهم يفيض على الجميع..

أما سائق السيارة، في ليلة أخرى، بل لعلها نفس الليلة، وقد عادت السعادة بنا إلى الميدان مرة أخرى وحينما أردنا الانصراف، قال السائق:

ـ يمكنكما الصعود.

كان يبذر سيجارة ويلف محتوياتها:

ـ ألن تنادي على آخرين؟

ـ بصراحة أمتعني الحشيش سررتُ بمضي رئيسك لأنه كان قد بدأ يضيق علينا فيه.

قالت هالة في حيادية:

ـ وكيف هو الآن؟!

ـ مائة فل وعشرة.

ـ لذلك نخرج.

obeikandl.com

ـ إنك بمفردك.. فَلِمَنْ نون الجمع في أول نخرج؟

إنه يتعاطى الحشيش فكيف يرى هالة إلى جواري؟

ـ وإنك لتحب هالة حبًّا جمًّا.. فكيف تغيب، وهي الحبيبة الأثيرة؟

ـ انتبه لما تريد ودعك مني.

قلتُ للرجل بعد أن نزلتُ بالفعل عبر نافذة السيارة:

ـ هل مخدر الحشيش شيء جميل؟

ـ وهل أجهل منه؟

كنا أمام بوابات رابعة ناحية النصر، وفجأة دوّت أصوات صفير متقطعة حادة لكنها قليلة، وفي ظلام الليل، فيما المئات يخرجون عقب تناول الإفطار، وقليل من الفقراء بيدهم أكياس فيها طعام باق جاد عليهم به الأغنياء من طعام بقي معهم عقب إفطارهم، أو تنازلوا عنه، إحداهن كانت تقول في وضوح:

ـ حماكم الله جميعًا.

التفتُّ إلى شاب بمنظار قادم من ناحية المنصة يلوح بيديه، فيما ارتفع ارتطام قطع طوب وحجارة بأعمدة الإنارة تمامًا كيوم الحرس الجمهوري الأول، ورأيتُ من موقعي الشباب الصغير السن في يده العصي يهرول لمقدمة السواتر الترابية.. وهل تغني من شيء!؟

الثبات مع شيء من التطلع نحو ما هو مقبل من شباب بزي مميز يتجمع عند مداخل البوابة في تماسك نادر:

obeikandl.com

ـ أين هؤلاء من رجل حكم مصر لثلاثين عامًا لما ظن حماته يوم منصة ٨١ هم من أعدائه؟

ـ جاؤوا لحمايته يا هالة عقب مقتل الرئيس السادات.. فمن فرط الخوف لم يدقق لا فيهم ولا في ملابسهم، وقيل إنه قال لهم إنني موظف حكومة لا أكثر، وليس لي من الأمر شيء.

ـ موظف برتبة نائب للرئيس.. ثم رئيس للجمهورية!. هكذا يفرخ العسكر في بلادنا حماتهم.

ـ مع احترامنا لجيشنا في صورته الواضحة.

ـ يقول الدكتور صفوت حجازي- الآن يا إيلاف-.. إن سيارتين من سيارات الأمن المركزي أرادتا اقتحام الميدان، ربما من باب جس النبض فلما أحستا بامتلاء الميدان تراجعتا وفرتا من شارع متاخم له.

ـ كيف سمعته يا حبيبتي وأنت معي؟

ابتسمت في تواضع:

ـ ألن تعودي معي؟!

ـ أعود معك؟!

قالتها في لهجة غريبة لم أدر لم تستغرب بين ثنايا الكلمات؟

هل لأن هناك حقيقة لا أستطيع فهمها أم ماذا؟

ـ أنت تلومينني على العودة إلى البيت؟ لا بد من قضاء بعض الأمور.

ـ حبيبي إنني أبدًا لا ألومك.

obeikandl.com

عدت إلى السائق إلى جوار النافذة..

شيء محير ومقلق بل بالغ الغرابة:

ـ أما زلت تلف الحشيش حتى الآن؟

ـ نعم يابيه!

تلف الحشيش فيما أرواح هؤلاء في الميدان تكاد تُحصد؟

ـ ومالي أنا! المهم أن أجد لقمتي وافرة.. وقرش المخدر. الحمد لله الحكومة مشغولة بهم فلن تفيق قريبًا لنا.

يحمد الله تعالى على إهدار دماء العشرات طالما سيجد من الحشيش ما يشغله، أي بشرية في قلب ونفس هذا ركِّبت؟

ـ نفس من يبيح للجنود القتل.

ـ ومن علماء دين حفظة للقرآن الكريم.

ـ وصدق الفنان وجدي العربي لما قال من أقنعك أننا عصافير قنصنا مباح؟

ـ حتى العصافير يا هالة.. قنصها عن غير جوع حرام.

تبخرت من أمامي هالة، فيما الرجل يُلف سجائر الحشيش مايزال:

ـ هل الحشيش شيء رائع؟

ـ سألتني هذا السؤال قبل «الجلبة» الأخيرة وقلتُ لك إنني أحبه، أعطيك علامة.. بإمارة أنك قلتَ هل شُرب الحشيش شيء جيد.. لا رائع جديدة هذه.

ـ إنه يمزح يا هالة. لماذا تنشغلين عني؟ يمزح فيما روائح الدم تعبق المكان.. لماذا أنت في شُغل عني؟.

ـ هناك أرواح تستعد للسباحة من جديد في أفق الوجود ثم الارتقاء إلى أعلى.

أنت تخيفينني عليك.

ـ لا تخف إنني أهنأ ما أكون.

لم أرد التوقف بالتفكير، ولو لقليل أمام ما فعلوه يوم ٣٠/ ٦ أراه لا يستحق، ليلتها عدتُ من الميدان معك، كنا معًا هنا، وعدنا عبر مواصلات عدة إذ لم نجد سيارات، وقرب أذان المغرب كانوا يخرجون.. أعلام مصر، وزغاريد بل منقبة في المنتصف، بالفعل ليست الملابس دائمًا عنوانًا على التدين، سدُّوا الطريق إلى ماسبيرو تمامًا، قطعوا الشارع الخاص بكورنيش النيل بلا هوادة، وركب معي في السيارة المتوسطة بين الكبر والصغر عدد من البلطجية، منعوا مزيدًا من الناس من الصعود، ولم يعرف السائق التعامل معهما كانا اثنين عند الباب.. غريبي الشكل.

ـ كان هذا ليلة حادثة المنصة يا إيلاف وليس ليلة ٣٠ / ٦ اشتبه الأمر عليك لأن تفويضًا تم ليلتها ضد ما أسماه الغراب الإرهاب المحتمل.. العدو الذي خلقه لنفسه؛ ليستطيع الإبقاء على حركاته وتوجهه السيئ ضد الديمقراطية وإلغاء حلم قوة مصر وتقدمها.

ـ وكم من أصحاب الدرجات العلمية والتوجهات السياسية يصدقون لأجل المال أو المكانة أو التعود على الظلم منذ عهد فرعون يستضعف أهلها؟

ـ تحملت الكلمات حتى مرّوا بالنهضة ويبدو أنهم كانوا من أمناء الشرطة إذ نزلوا لدى موقف أقاليم الجيزة، تحملتَ أيا حبيبي حتى قال ذو الجلباب منهم لما مررتم بميدان النهضة:

ـ أذكر أنه قال أخذكم الله جميعًا. فقلتُ له: بل حفظ الله الجميع ومصر هنا وفي التحرير. أجفل في البداية ثم عاوده شيطانه فصرخ إخوان هنا في السيارة يا شباب عليكم به، وجاء أحد الولدينِ، وكان «محششًا» هو الآخر:

ـ أنت إخوان يابيه؟!

ـ أنا قلتُ له ربنا يحفظ مصر كلها.

ـ ومن عند النهضة؟

ـ ومن في التحرير.

ـ يعني لست إخوانًا.

ـ بل إنني مع الحق.

ـ تبقى إخوان.

ـ وفتح مطواته يا إيلاف.

صرختُ فيه:

ـ أنت لن تخيفني هناك أمر اسمه الاختلاف في الرأي أنت لا تعرفه. أختلف معك لكني لا أفعل ما تفعل؛ لأن هذا بلد واحد.

ـ ادخل مطواتك يا مهجة. هذا إنسان وليس إخوانًا. لكن يا صديقي

obeikandi.com

«الأفندي» مثلنا لا يفهم هذه النبرة «العالية»، قل لنا لست إخوانًا وانتهى الأمر.

ـ هكذا فهما يا حبيبي ولو طعنك لما وجدتَ في تلك الليلة- لا قدر الله تعالى- من ينصرك، ولكنك كنتَ رائعًا كما تبدو كلما وفقك الله في رد على أمثال هؤلاء.. بعد قليل عطش أحدهما، وكان بيدك بعض من مياه رابعة تؤثر أن تبقيه حتى اليوم التالي ليردك إليها، وطلب من أشهرا المطواة في وجهك مياهًا.. لم تتردد لكنك تعززتَ عليهما فزاد أحدهما لدي الكلى ولابد لي من مياه نطقت خلف الزحام وقلت له تفضل بل خذ الزجاجة فقال صديقه العالق لدى الباب:

ـ قلتُ لك إنسان.. إنسان فقط لو تدعون لنا الحشيش فقد كان مرسي ينازعنا عليه؟

ـ لستَ أول من قال ذلك.

ـ الحشيش لدينا أهم من الطعام ففوضنا لئلا تعودوا وتقولون لنا إنتاج وتوبة.. ثورة آه موافقون لكن حشيش لا ممتنعون.. مخالفون رافضون.

ـ وعند نزول أميني الشرطة حيوك بعدما كدت تفقد عمرك لوشاية بلهاء منهما.

قلتُ للرجل لدى السيارة عند رابعة قبل التفويض بليال:

ـ لو أن الحشيش شيء جميل.. هل تعلمه لصغارك؟

ـ لا طبعًا. هؤلاء لهم الدكتور مرسي وجهودكم.. لكن بعد وفاتي.

- ١٠ -

ـ إنها الغابة أتت إلى رابعة؟

ـ وهل كانت الملايين تعرف ما رابعة؟ وهل كنتَ أنت تدري ما رابعة؟

خيام على الجانبين، مئات الخيام على امتداد شارع النصر بداية من محطة تزويد وقود أمام جهاز التنظيم والإدارة وحتى قرابة كيلو متر ونصف الكيلو متر، على كل خيمة صور، البعض لشهداء بعد نفاذ الرصاص إلى أجسادهم، أغلب هؤلاء ترتسم البسمة على الوجوه منهم، وتبدو النضارة فيها، بل إن غير واحد منهم كان مبتسماً في ألق عن أسنان بالغة البياض، وأصبع سبابة إلى السماء، في منتصف تلك المسافة سيارات تقوية الإمداد الكهربائي خوفًا من قطع الكهرباء ليلًا إطلاق النار على المصريين في الميدان بالأسلحة، ويبدو أن محاولات من هذا القبيل تمت في نهاية الشهر الفضيل إلا أنها لم تكتمل من لطف الله تعالى، أمام مولدات الطاقة هذه فهي لسيارة بث تلفزيونية أرسلها الوزير لمتابعة الأوضاع في رابعة منذ يوم ٦/٢٨ كما أرسل مثلها إلى ميدان التحرير، شيء من المصداقية الذي ظن الجميع أن مصر بعد وهم ٢٥ من يناير مقبلة عليه، السيارة على ناصية شارع الطيران من اتجاه خلف وزارة الدفاع، إذ إن شارع الطيران يتقاطع مع النصر أمام مسجد رابعة، على اليمين من القادم من النصر وأمامه المسجد خلفية وزارة الدفاع على بعد أمتار، وعلى الشمال مبنى الدفاع الشعبي بسوره ذي اللون الأزرق، وكان الثوار هناك يجلسون على

الرصيف رجالًا ونساءً في تجمعات صغرى منفصلة جل همها ذكر الله وتبادل المياه وشيء من بسيط الطعام، الباعة الجائلون هم القاسم المشترك بين كل تجمع بسيط وآخر، باعة الشاي، وأحيانًا القهوة مزودين بأنابيب البوتجاز، والمواقد من رجال ونساء، وكذلك باعة المياه المعدنية المحمولة على الرؤوس في إناء كبير بلاستيكي، وأحيانًا باعة الصحف على الرؤوس وتحت الإبط، هناك على امتداد شارع النصر خيام بعد المسجد أكثر اتساعًا تحترم حرم المحلات المختلفة، وفوق كل خيمة اسم المدينة أو القرية أو الناحية التي جاء منها أهلها، أما الساتر بينها وبين الشارع الرئيسي فبسيط جدًّا، ملاءة سرير، أو قطعة قماش طويلة وعريضة، أغلب من وفدوا إلى الميدان معهم الزوجات والأطفال، الأمان مفرط في هذا المكان، لا أحد يضايق الآخر، لا رجل يتعرض لامرأة، لا طفل يتم خطفه، لا فتاة يتم اغتصابها، فترة الظهيرة فترة قيلولة الميدان، يمكنك الاطلاع على أرجائه بهدوء شديد، الساحة خلف المنصة من ناحية النصر ساحة جري ومزاح، لم تكن الأمور تم ترتيبها في البداية على النحو المستقرة عليه منذ بداية شهر رمضان المعظم، كان أمل في النفوس أن الفورة ستهدأ فور رؤية الملايين المؤيدة للشرعية في مصر، ولكن الموقف مع الأمل الشديد في النفوس صار يتعقد ساعة فساعة، وبدأت تتضح الرؤية.. الموضوع تم التدبير له بليال طويلة، بل قيل منذ تولي الرئيس المنتخب، خيف يومها من إعلان نتيجة مزورة أن تنتفض مصر كلها، فتم العمد إلى تكثيف الصورة السلبية بل خلقها من فراغ عبر الإعلام وتراخي الأمن، وتداعي الجيش لخلق المشكلات حتى وإن كان في صورة بعض الـ.. منه.

عند التقاطع تجد المنصة الرئيسية أكبر تجمع بشري آمن في مصر.

النساء في الأمام يحفظهن أو تمام حفظهن فاصل محدد له حبل ملون له حرم زيادة عن نصف المتر لا أحد يستطيع الاقتراب منه إلا النساء، ويقوم على حفظ هذا النظام عدد من الشهداء اليوم متألقي الشفاه، من الخلف علامات مماثلة تحفظ الطريق، تحدد معالم للإسعاف، بعد الإفطار تتضح معالم الازدحام، لا موضع لقدم، وبخاصة في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، حتى إنه في يوم مجزرة المنصة صار الميدان طاردًا لمن فيه، السيارات التي توزع المياه المثلجة لا تستطيع التقدم للأمام، والاختناق سيد الموقف، لا حل سوى الخروج، روى شاب أن أقرب أصدقائه جاء ليعاين الميدان، ولما كانت المرة الأولى له، وكان الشاب الكرداسي محبًّا لفعل الخير فقد اختار سقيا الماء، ولما ضاق الميدان بالناس تراجعت السيارة إلى الخلف، وكان من أوائل المصابين بالرصاص ليلة التفويض الثاني أو حادث المنصة، جاء إلى الميدان ليسقي الماء فكان جزاؤه الضرب بالرصاص.

على جانبي شارع الطيران مئات المئات من الخيام، فالمكان قريب من باب المسجد الرئيسي، وبالتالي دورات المياه للنساء والصغار، وغير الخيام في أربعة أطراف من الطريق، على جانبي كل نهر منه، هناك خيام في منتصف جزيرة الطرق، والمشي له قواعد فإن لم تذهب قبيل الغروب للوضوء للمغرب فقد تعود في منتصف التراويح، لو أن المال معنا نفد لا نقلق، هناك من اشتروا وجبات جاهزة يودعونها أيدينا مبتسمين متمنين أخذها، قطعة من لحم طير، وقليل من الأرز ورغيف، الحمد لله تعالى، في أول ليالي رمضان صليتُ التراويح ولم تصل أمامي هالة بل صلت أعلى مني:

ـ أولئك الشباب لا يصلون يا هالة.. يلعبون ويمزحون بل يدخنون فيما الناس تصلي.

ـ عمق الأفق يجعلك ترحب بهم أيا حبيب نتمنى اتساع الجميع واحتضانهم بقلوبنا.

ـ تريدين للثورة أن تسع الجميع كيلا تغرق مصر بنا.

آسفين يا «باشمهندس» لم نصل وشوشرنا عليك بالسجائر والصوت.

شباب وفتيات يمزحون ويلعبون.

ـ من فضلك رد في لطف عليهم.

ـ لا أحتاج منك ذلك أدرك عمق المحبة في قلوبنا.. ولولاها لاحترق بلدنا بنا.

ـ بل إنني سعيد جدًّا بوجودك في رابعة وأتمنى أن نلتقي طوال الوقت.

مضى الشاب وخلفه فتاته ونظرة ألم في عينيه وقال فيما يمضي:

ـ إن شاء الله غدًا أصلي معك.

ـ أتمنى.. وأنتظرك.

قال لي الدكتور فاضل رئيس هيئة علماء المسلمين في إحدى الدول الأوروبية الموحدة:

ـ نريد استيعاب كل الحركات الثورية لا نريد أن يكون خطابًا ثوريًّا

obeikandl.com

إسلاميًّا بل ثوريًّا ثوريًّا؛ لنسع جميع التيارات في الميدان وغيره من الميادين إن أمكن.

ـ إن هؤلاء صعب لمهم وجمعهم معك يا دكتور.

ـ ولكننا لم نحاول.. إننا نتقسم بهذا الحال يا صديقي ونتيح لمن ليس معنا أن يأكلنا جميعًا.

ـ ليس الجميع معك ومن التيارات الثورية يا صديق.

ـ أأنت لستَ متأكدًا من صدقها؟

ـ لا أستطيع اتهام أحد لكن المعارضة المزيفة التي وهبها لنا حسني مبارك أثمرت مئات إن لم يكن آلاف الناس ممن قد يضربونك غدًا.

ـ لكن لدينا شباب نقي مغرر بهم.

ـ أتفق معك أخبر المنصة فلربما استطعنا.

غيرت المنصة من شعارها في الخلفية عدة مرات، ثلاثة تحديدًا، فمن ثورة إسلامية بلون أخضر وفارس فوق حصان ممسك بالراية، إلى مع ثورة ٢٥ يناير ضد الانقلاب بسهمين أحمر عند الانقلاب، وأخضر عند الثورة «سهمان متقاربان» لكنهما لا يلتقيان.. وفي رمضان تألقت المنصة بالتهنئة بالشهر الفضيل وبفانوس خماسي عليه صورة الرئيس وفي جوانبها البلتاجي وحجازي وأبو إسماعيل.

محاولات القتل كانت تزيد من الحضور، الفتيات التابعات لمحطات عالمية وأجانب كانوا يدخلون يصورون بل يتناولون الطعام أحيانًا في ود مع الجميع، هناك صيدلية ميدانية عبر خيمة لدى الطيران ناحية الدفاع،

وإلى جوارها مقر التبرعات للطعام، وأمامها خيمة الفن والكاريكاتير وفي الأمام محلات الفول والطعمية والدجاج المشوي، وفي الوراء الزخم الحقيقي عبر المدرسة الثانوية وإلى جوارها الإعدادية، ولما ضاق المطاف بالثوار فتحوهما لاستخدام دورات المياه، مع فرط الحفاظ على مكوناتها، وكان البعض ينام في الفصول الدراسية بخاصة من الفتيات تحت حراسة بعيدة عنهن تمنع وصول رجل إليهن، وكانت مدرسة كاملة تحولت للنساء، هذا الشارع الخلفي كان يتمتع بزخم شديد من نقاط التفتيش الخلفية، وبعض العبوات الكبرى من الرمال لضمان شيء من الحماية، منتهى الرقي في التعامل، والابتسام، تغادرهن عند الرغبة في الذهاب إلى دورة المياه، ولما تعود يفتشونني في حبور:

ـ أتعبتمونا وجعلتمونا نكره بيوتنا وشققنا.. نكاد نغادر رابعة كلها.. أحد أرقى أحياء مصر من أجلكم.

ـ نحن يا أفندم؟!

ـ ألا تعرفون أنفسكم؛ لهذه الدرجة تصدقون أنفسكم.. أنتم لستم أخيارًا بل إنكم..

ـ لكن يا أفندم نحن هنا بمئات الآلاف وفينا من يمكث ومن يغادر.. هل تحكمين علينا جميعًا بحكم واحد؟

ـ ولماذا جئتم؟

ـ من أجل غد أفضل لابنك هذا الذي يجلس في السيارة إلى جوارك.. وكفى ما جرّ علينا الحكم العسكري.

ـ أمنا مستقبله ومعنا ما يكفي.. لا نريد خدماتكم؟

ـ لكن الرصيف هذا متكسر.. والمدارس في حالة يرثى لها، والحالة الصحية مترديةٍ.. والأمن لا يقدم خدمات مناسبة.

ـ نعرف كيف نحيا في مصر.

ـ ولكننا يا أستاذتي.. لا نعرف كيف نفعل؟

ـ تهمني نفسي.

ـ لو أن كل مصري فعل هذا لعشنا في جحيم..

ـ بل اذهبوا إلى الجحيم.

ـ سامحك الله.

كانت تتحدث معه في غير لطف، وكان الشهيد أحمد عمار الموكل بالحراسة في تلك النقطة هو من يرد، لمح قناصًا يوجه رصاصة نحو امرأة.. فأخذ يصوره بكاميرا المحمول وسط ذهول كل من حوله فمثل هذا الفعل يساوي استهدافه على الفور، وقد كان تركها القناص وأصابه في مقتل، رفع سبابته إلى السماء فيما كانت الدماء تغطي صدره، ونظر إلى المرأة وفاضت روحه.. فيما وقفت السيدة مذهولة:

ـ أردتَ شغله وإبعاده عني ففديتني بروحك.. قل لي من أنت ولماذا فعلت هذا؟ نلت الشهادة وفررت أنا.

حاولوا تنحيتها عنه؛ فقالت:

ـ سأبقى حتى يجيء أهله ولو كلفني الأمر روحي.

obeikandl.com

عرفتُ أحمد عمار من هذا الحوار كانت تتحدث معه في شيء من قلة الفهم غير قليل، مع قدر من الاحتقار، وكان طأطأ من بصره ويرد عليها فيما يزداد غيظها، تملكني الغضب؛ فقلتُ له:

ـ لماذا تحملتها يا أستاذ؟

ـ أحمد عمار مهندس إليكترونيات معك؟

ـ عفوًا يا باشمهندس لم تحملتها ولم تقل لها عن حال استحقاقات خمسة انتخابية بملايين الدولارات أطاح الجيش بها.. لماذا لم تحدثها أستاذي عن آلاف الشهداء مبقوري البطن من السرطان الذي تم بثه في تربتنا، عن تخلفنا آلاف السنين عن دول بدأت نهضتها بعدنا عن ماليزيا بل الهند.

ـ عفوًا يا صديقي أردتُ إرسال الرسالة بلطف؛ لعلها تراجع نفسها.

ـ أم إنك لمحت ملصق هيئة قضائية على زجاج السيارة!.

ـ لمحتُه لكنه لم يمثل لي شيئًا.. لعل الله يرزقنا اللطف ببعضنا.

ـ لكنها عادت من جديد يا باشمهندس.

ـ من فضلك مهما قال فلا تتدخل رجاءً. دعها لي أنت وكل الواقفين لا أريد تدخلًا.

ـ أما زلتَ هنا؟

يا الـــ.. ملئتم علينا البلد!

كيف يمكن أن نتخلص منكم؟ بقنابل النابالم.. أليس كذلك؟

أنت هل تفهم؟

ـ نعم يا أفندم أفهم. إني لا أثير بداخلك شيئًا من التعاطف الإنساني لإنسان يترك أهله وبيته من أجل غدك وغد زوجك وصغيرك.

ـ هل تفهمني؟

ـ تمامًا بل أقدرك كأختي.

ـ أختك (قال) لا أريد.. وأريد أن تمضي من هنا إلى القبر إن أردتَ.

لمعت الدموع في عيني الشهيد الحي، وأراد التخفيف عن نفسه فاستدار، فيما تسمرنا حوله، إنه يضرب مثلًا مرهقًا جدًّا في التحمل، أخذتُه في حضني، فضمني بشدة.. فيما كانت السيدة تنظر إلينا في استغراب، إنها تفهم إننا لا نعرف بعضنا، إنها متعجبة من مقدار محبتنا، ولرغبتنا في التخفيف عن الرجل، فيما حرارة الشمس لا ترحمنا، والشاب يبدو أنه لم يغير ثيابه من أيام، والإرهاق مرسوم على ثيابه وملامحه، حتى إنه كان يفتح عينيه في ضعف ووهن، حملقتْ فينا جميعًا ومضتْ.

ـ هذا الرجل يستحق أن تجلس إلى جواره أيا حبيبي.

ـ سمعًا وطاعة يا هالة.

ـ بم تدعو يا «باشمهندس»؟

ـ بالهداية للجميع.

ـ ساعة وعادت السيدة الغريبة ومعها زوجها جالس إلى جوارها.

ـ هل تتنحى أنت؟

ـ لا. بل إنني سأحدثهما وسأحتوي ثورتهما بإذن الله.

ـ لم تتحمل كلماتي في صمت ولا ترد علي؟

ـ لأنني منشغل بما هو أكثر من الحوار والشجار عفوًا.

ـ بماذا؟

ـ بمستقبل بلدي ورضا ربي من قبل.

ـ هل أنت فقير؟

ـ الحمد لله.. لا.

ـ عفوًا.. سامحني ماذا تعمل؟

ـ مهندس إليكترونيات في شركة كبرى.

ـ وتدع بيتك ليل نهار وتعطل عملك؟

ـ نعم من أجل رضا ربي ثم رفعة بلدي.

ـ جئتُ بزوجي المستشار؛ لنشارك شبابًا بمثل هذه الأخلاق الحياة في الميدان.

obeikandl.com

- ١١ -

الغيظ يتملك النفوس، في لحظة نعود لما قبل ٢٥ يناير بفيديو وتصوير جوي وندّعي أن هذا نظام ديمقراطي جديد، قالت رحاب، امرأة التقيتُها في النهضة عند المنصة قرب باب الجامعة:

ـ إن معي تليسكوبًا أبحث به هنا عن خمسة أصوات انتخابية لي أين ذهبتْ؟

وقال بلطجي: تم الإمساك به قبيل رمضان بليلة واحدة بعدما أصاب شابًّا في النهضة إصابة بالغة:

ـ قالوا إنكم إرهابيون وقتلة ينبغي الخلاص منكم؛ فقتلته.

ـ وهل أنت قاضٍ وجزار في نفس الوقت.

أدرتُ وجهي إلى الناحية الأخرى:

ـ لفرط ما يخطئ من يبذرون التطرف في تربة مصر الجميلة.

ـ أين هالة؟

ـ استرجع.

ـ لماذا؟

صمتت هالة..

كل شيء في الميدان مقلوب، كل الخيام إما ممزقة أو إن النار تهضمها، الصياح متزايد، ضباط يضعون على أفواههم قناعًا ضد الغاز منتشرون في الأماكن البعيدة، أم هاجر تعود بها في كفن الدم ما يزال يقطر منه،

أسماء صقر امرأة انتحت بزوجها أمس جانبًا بعد صلاة العشاء يتحدثان في ود، كان صديقًا لمصعب الشامي صديق صديقي فاضل قد عرفني به، ولمحتُه يحدثها في ود فابتسمتُ فلمحني وأومأ برأسه فخجلتُ ومضيتُ بسرعة، منذ قليل كان يستند على كتفها في طريقه للمستشفى الميداني.

ـ لا تذهب؛ أخشى عليك.

ـ القدر نافذ.

ـ قد تموت؛ القناصة هناك لا يرحمون.

ـ والألم عنيف.

بكيتُه ولم أكن أعرف أن القناص سيصيب أسماء وجنينها في شهره الثالث.

ـ أين أنت ياهالة؟

صرختُ في عنف فقادني أحدهم إلى المنصة قبل دقائق من حرقها.

الموقف من هنا شديد الوطأة على النفس، الكل يهرول، الجميع يقصده الرصاص، الدخان شديد، الثبات لا يخطر على بال بشري، الموقف كهول يوم القيامة، هل هؤلاء بشر، أطفال صغار يهزون آباءهم ليقوموا مما يتخيلونه موتًا، امرأة مسنة تبكي في لوعة:

ـ هل رأى أحدكم ابني؟

ـ رأته الملائكة يا أمي فاحتسبي.

صاح المتحدث في الميكرفون...

obeikandl.com

كـأن لم يسمر برابعة سامر، ولم تضأ لياليك الحسان يا رابعة بالأطهار ساجدين قائمين يطلبون رحمة الله بهذا البلد من ستين عامًا من الظلم والفساد، إعلاميون أصدقاء لم ألقهم منذ قرابة ربع القرن أشاهدهم هاهنا للمرة الأولى، ولا أدري أتكون لمثلي الأخيرة، أساتذة جامعات، علماء، يصيح المتحدث في الميكرفون نريد:

ـ «فنيين، حرفيين، نجارين، سباكين.. وصلنا الآن عشرة من كل نوع اكتفينا من فضلكم».

إنها اليوتوبيا، مدينة الأحلام، على الأرض..

لماذا أبقى فيها الصحاب إلى زوال؟

ليلة فاض الميدان من وفرة من فيه، كنتُ عائدًا من مسيرة إلى القصر الجمهوري.. مسافة بعيدة مضت في تألق لا حد له، زوجات مع أصدقاء، هالة تحلق فوقي:

ـ منذ متى وأنت تحلقين؟

ـ قل حتى متى سأظل أحلق.. أنت أديب؟

هتافات لا سباب بها، ميكرفون في سيارة يذكر بالثبات، مئات الآلاف تهدر في الطريق، تفتح النوافذ، الناس تنظر في ذهول:

ـ نحن هباء.. لسنا بشرًا.. صدقوا الإعلام وكذبونا.. نحن لسنا هنا، إنما هي أوهام.

مع المرور بباعة الصحف المئات يتخلفون لدقائق، العشرات يشترون المأكولات وزجاجات المياه والعصائر.

عند العودة قررتُ العودة إلى البيت، مضيتُ حتى كوبري الفنجري، لا مواصلات كافية.

ـ كم الأجرة؟

ـ .....

ـ أنت تزيد السعر جدًّا؟

احتدم السجال والنقاش بين الركاب؛ فانبرى من قال:

ـ دعكم من النصف جنيه؛ لأن الداخلية بأعلى الكوبري تكاد تطلق الرصاص على المتجمهرين في رابعة ارحموا أنفسكم.

ـ يمزح.. أليس كذلك؟

ـ اذهب لترَ وتشاهد.

ـ بل يمزح.

ـ كمثل عمر نيازي؟

ـ لا. هناك فارق وفارق كبير جدًّا.

عمر شاب في عمر الزهور يقرأ القرآن الكريم في الجزيرة الوسطى بقرب المنصة، سمعت كلمة أعرفها من آي الذكر الحكيم لكن بنطق لم أعتدْه منه، كنتُ أبحث عن وسيلة مواصلات بقربه.

صححتها له فأكمل الآية ثم قال:

ـ عفوًا؛ أقرأ برواية ورش لا حفص.

obeikandl.com

ـ وهل تعرفها في هذه السن؟

ـ الحمد لله تعالى بل أسمعتها على يد أحد الأئمة في الحرم.

ـ بقيتَ مدة طويلة هناك إذًا؟

ـ الحمد لله فأبي يعمل هناك.

ـ حماك الله.

ـ بل وفقني.

إلى ماذا يا حبيب؟

ـ إلى الشهادة يا عمي.

حملقتُ فيه فيما واصل القراءة.

عند وصولي إلى البيت وجدتُ هالة بلباس الخروج:

ـ ألا تملين هذه الملابس؟

ـ أفتح التلفزيون مجزرة جديدة في رابعة.. مجزرة حتى الصباح.

لا يريدني الله شهيدًا، ويريد أقرب الناس إلي.

عند الظهر كنتُ في رابعة، أنزلنا السائق عند أبعد نقطة من المنصة وهو بالغ الخوف:

ـ مع السلامة.. ربما لا تعودون.

قال الشاب:

ـ قلتُ لزوجتي قبل أن أمضي: إنني لا أبكي على الذين استشهدوا؛

obeikandl.com

فهؤلاء في كنف الله تعالى بل أبكي على من مات ضميرهم، على ألق وجمال رابعة، على كاميرا عز دويدار تدور حول المعتصمين تصور مليونين من الفضاء، على الحسن في الرجال، والبهاء في النساء، والسكينة في الأطفال ونادرًا ما يجتمعون.

عند الظهر جاء صوت صفوت حجازي هادرًا كعادته:

ـ كل من في الخيام يخرجون، لدينا شهيدان مسافران إلى الشرقية لا أقل من صلاة الجنازة على من فدوا الميدان بأرواحهم ومن أجلنا استشهدوا.

خرج الجميع وانهمرت الدموع من النساء والرجال على حد سواء.

وبعد مضيهم في سيارتين لتكريم الإنسان قال حجازي:

ـ نحن في انتظار والد شاب من حفاظ القرآن الكريم بالقراءات السبع، حج خمس مرات، تفضل الله عليه بعشرات العمرات، ولم يرحمه الظلمة بالأمس.

كانت الصورة تقترب من وجه مثلث يبدو أنه كان أبيض لكن تلبسه اللون الأصفر من طول بقائه في الشارع، وجسد نحيف لا يزيد وزن صاحبه عن خمسين كيلو جرامًا، ونظرة عين واثقة، وملابس بسيطة.

ابتلع المتحدث ريقه ولما نطق باسم الشاب؛ صرختُ في عنف وانهرتُ في البكاء:

ـ نحن في انتظار حضور والد الفتى الشهيد، بإذن الله، عمر نيازي.

ـ لله درك يا بني طلبتها صادقًا فيما مضى مثلي إلى البيت، وزعتْ رحمات السماء على أناس فنالوها ونلتها أنت وتخلف مثلي.

كان الخوف باديًا في تضاريس صوت حجازي وأضاف فيما عشرات الآلاف متحلقة في الميدان بل قريبة من المنصة، وقد ألجأني الزحام إلى أقرب خيمة وسطى أمام المنصة وقال من أخذني إليها:

ـ لا تبكه؛ فهو شهيد.

ـ إنما أبكي بقائي.

ـ اطلبها بصدق توهب لك.

ـ مثلي بعيد.

ـ من يدريك! بل لعل الله يبقيك لسبب لا تدريه.

ـ نحن في انتظار قدوم والد عمر من الطائرة القادمة من المملكة العربية السعودية؛ لنصلي صلاة الجنازة خلفه إذ طلب تأخير الصلاة حتى يحضر لطف الله بنا وبه.

خلف إهاب الكلمات خوف دفين من رد فعل أب ترك ابنه وسافر ويعود ليأخذه ميتًا من رابعة، المتحدث يتهيب بشدة من لقاء الرجل، بعد نصف ساعة قال:

ـ الزحام الشديد في شارع الطيران يؤخر وصول والد عمر نيازي دعواتكم له بالثبات.

قبل أذان المغرب بساعتين تقريبًا وصل والد عمر إلى المنصة.. هتاف ثوري ثم قال:

ـ لله درك يا عمر علمتني أكثر مما علمتك، كنت معي في المملكة حتى

نلت الشهادة الثانوية وعدت لتكمل كلية الهندسة، وكنتَ عند الكعبة تدعو بدعاء غامض على مثلي، ورغم قربي منك لم تقل لي ما هو، لعلك كنتُ تدعو بالشهادة يا حبيبي، كم قلت لك على سماعة الهاتف لا أريد لك الذهاب إلى المظاهرات فقلت لي حقك يا أبي سمعًا وطاعة. كنتَ مشغولًا بقضايا وطنك وأمتك لا بما يشغل الشباب واليوم أتلقى درسًا لن أنساه منك إذ أودعك شهيدًا وأبقى.

يومها لم أستطع تناول إفطاري، وانتشرت صور الشهداء أكثر فوق الخيام، وكلمات:

ـ هنا كان ينام- مؤقتًا- الشهيد....

وفي اليوم التالي وصل خبر اعتقال والد عمر، أكان على الرجل ذبح عجل لقاتل ابنه!!!

obeikandl.com

- ١٢ -

كانوا مُصرين على إنهاء الاعتصام بوحشية..

الدم يلطخ الأرض والأيادي.. الملابس، الخيام، النار تحيط بالجميع، فيما الصراخ يتعالى، المستشفى الميداني لم يعد يتسع لمئات الجثث، غير متاحة هنا، وفيما تُستخدم أماكن أخرى.. كان الأطباء حائرين بين حالات تتوجع وأخرى تلفظ أنفاسها، من يساعدون ومن يتركون؟ فتاة صغيرة تنزف.. لا بد من نقل دم إليها، هذه الإمكانية استهدفها القناص لما ميزها له أحدهم بحقيبة صفراء وراءها، الإسعاف ترفض المجيء لأخذها، فيما هي تتمتم:

ـ يا الله لطفك.

تبكي العيون دمًا.. قبل أن أخطو للطبيب.. أعرفه؛ فقد تحدث فوق المنصة منذ أسابيع وقال:

ـ أسكن في منتجع سياحي بمعنى الكلمة، وأعمل في أربعة مستشفيات خاصة، لا أكتمكم سرًّا إنها ملكي كلها، وتركتُ المؤتمرات الخارجية المتعددة وجئتُ إلى هنا لما علمت أن نداء الإنسانية يفرض علي هذا، كيف أغيب عن أبناء شعبي لما يُقتلون ولا يجدون من يضمد جراحهم؟ أين أنقياء الصدور.. يوم مذبحة المنصة كنا «ننزح» الدماء بالجرادل من المستشفى الميداني، ولم تسعفنا الإسعاف.. ماذا سيقول هؤلاء «الجزارون»

لله تعالى غدًا؟ وماذا سيقول المتقاعسون عن كل هذه الدماء؟ لدينا هنا أجهزة تفوق ما كنتُ أحلم به، لا أبالغ بالملايين، ولكن أين الأيدي التي تدير.. أناديكم؟ وأعرف أن صوتي يصلكم عبر القنوات التي تبث بعد فك شفرة سيارتي الإرسال.. تعالوا إلى إخوانكم في رابعة فهم في حاجة شديدة قصوى إليكم.

هل تعرفون- أعزكم الله- طاولات الخبز في المخابز كيف تدخل متعاقبة.. كذلك كانت جثث الشهداء تأتينا يوم المنصة، لكنها وجوه لم أر مثلها في حياتي، هادئة مستبشرة، أغلبها إما ضاحك أو رافع سبابته إلى السماء، لم أعرف كيف أتوقف عن البكاء، فكرتُ في قلوب مئات الآلاف من الأطباء في مصر يستطيعون التصرف على الأقل تبدو الأمور منظمة بعض الشيء ثم قررتُ توجيه هذا النداء لكل قادر على المساعدة صاحب ضمير.. تعال إلينا من فضلك، نحتاج ممرضين وممرضات، نحتاج أطباء ولو حديثو التخرج يعينون معنا، فنحن لم نعد نعرف ما سيحدث لمئات الآلاف هنا غدًا، اللهم بلغتُ.. اللهم اشهد.

أنظر إلى مجاوري أمام المنصة فيما الرجل ينطق، كأنه يتحدث عن أناس ستلاقي خطرًا في مكان آخر من الكرة الأرضية.

قال الشاب لطبيب أسماء:

ـ أنا أخوها دمي من دمها.. من فضلك انقل من وريدي لوريدها على الفور.

الفتاة البالغة الصغر ينبض دمها لكن فوق الأرض، سقف رأسي يتلاشى يطير إلى أعلى، إن الثلاث سبعات، أو فرق الموت الملعونة لما تتوجه إلى قلب الأبناء من أهل الوطن لا العدو الصهيوني، إنهم يقذفون من أعلى، بمحاذاة البناية المعلقة الإعلان عن فيلم تلفزيوني أو سينمائي، ضاعت المعالم واختفت القدرة على الإمعان، إنهم يقذفون من أعلى، وبسماعات الأذن يدلون الضباط على أماكن التجمع للشهداء القريبين، ما كل هذا، إنهم يدخلون الخيام فيقتلون ما فيها ومن فيها قبل أن ينظروا إليهم، الأطفال، المسنون، كبار السن، الكل ينزف الكل يموت، يحمل جثمانًا للمستشفى فيسقط شهيدًا به، تأخذه زوجته للمستشفى الميداني مصابًا بطلق في قدمه مستندًا عليها فيعود بدونها؛ إذ يطلق القناص النار عليها وجنينها في بطنها لم يزل، تذهب لتوقظ النيام خوفًا عليهم فتستشهد هي، ترضع ابنتها من حليب صدرها فيرضعونها الدم بدلًا من اللبن وتصر الأم على الذهاب بالصغيرة إلى القناص، لا لتعيره بما فعل، بل ربما ليرعوي فيقتلها معها، تستهدف للقتل وينزف دمها ويقول أخوها:

ـ خذ من وريدي لوريدها.

فيبكي الطبيب:

ـ للأسف هذه إمكانية ليست لدينا.. أعرضك أنت أيضًا للموت بهذه الطريقة.

الطريق إلى رابعة كان مليئًا بالإيجابية:

ـ لن يسرق الوطن منا يا إيلاف.. ونحن في أماكننا نتفرج.

ـ سنذهب وسنعتصم لأنهم يظنون سيناريو ٥٤ قابلاً للتكرار.

ثاني يوم مذبحة المنصة ما مررتُ بزاوية في الطريق بها ظل إلا ورأيتُ نساءً متجمعات بعلم مصر منددات بالقتل ومرحبات بالشهادة، يوم أتى أعلى رأس في الإخوان إلى المنصة صاح بعلو الصوت:

ـ ثورتنا مستمرة.. سلميتنا أقوى من الرصاص.. ستبقى الملايين في الشوارع حتى تعود برئيسها المنتخب محمولاً فوق الأعناق.

إنهم لا يريدون إلا أن يحكمونا فحسب، دمنا قليل في سبيل الوصول إلى هدفهم، بلدنا تذهب إلى الجحيم المهم أن يحكموا، حدودنا تستباح لإسرائيل تقتل من جنودنا من جديد قبيل أيام العيد، لا جديد، لم يعد العدو هو (إسرائيل)، في مذبحة الحرس الجمهوري الثانية بدأ إطلاق النار على من قيل إنهم إرهابيون في الركعة الثانية من صلاة الفجر، فيما هم سجود، لم تفعله إسرائيل مع الفلسطينيين ولا المحتل في أي دولة من دول العالم كله.

المعتصمون في إشارة مرور من أجل عودة رئيس منتخب لم يُمهل ليحكم، وتحدته الدولة كلها، وأخطأ باتخاذ مسار إصلاحي في وقت لم تكن تفلح فيه إلا المسارات الثورية، يواجهون بالموت في عصف لمسار السلم العام في بلدنا كله، بل إن المصلين في الحرس الجمهوري يتم القبض على المئات منهم دون هوادة أو رحمة، ويهددون بالموت وتلفق

القضايا لهم، ويضربون عن الطعام دون مجيب.

ـ إلى أين تمضي بلدنا؟

ـ إلى تصحيح المسار الثوري وتنقية الصف.

ـ أخشى من غد.

ـ وماذا سيفيد الخوف.. هؤلاء ما أتوا إلا عبر الدبابة على مدار تاريخهم الطويل، وما حكموا الشعوب إلا قهرًا وظلمًا وخوفًا بالحديد والنار.

ـ وما من تجربة بيضاء تريد الإعلاء من شأن الحق إلا وتصدوا لها.

ـ هذا دأبهم في الجزائر وفي غزة وفي مصر.

ـ إن حريتهم صنم من العجوة لما يضيقون به يلتهمونه على شبع.

ـ إنهم لا يعرفون المبادىء إلا إذا حملت مصلحة ذاتية لهم وحملتهم على المال أو حملت المال إليهم حملًا.

ـ والدم المسلم للأسف أرخص دم في الأرض يثور الغرب لما يُقتل من هم على شاكلته أو مجرد تعرض أحد لهم.

ـ خطاب المنصة في رابعة مئات الساعات المصورةيأخذون منها ما يعجبهم فقط، ثوان تحرف عن معناها الرئيسي لمن يريدون الاستقرار في ظل منظومة حكم حقيقية فيدعى بالقتل عليهم.

ـ أين أنت يا هالة؟ أشعر بسحب الهموم تتكاثر وتثقل علي؟!

ـ أو لستَ تدري؟

ـ أدري ولكن الألفاظ لا تنجح في نقل ما أريد قوله.

ـ إنني في أرواح في حواصل طائر أخضر أحوم حواليك هنا في رابعة والنهضة وكل ميدان استشهد فيه من أهل مصر الأبرياء العشرات.. حتى فجر يوم يستطيع الأحرار فيه التجمع من جديد!

obeikandl.com